د. محمد عمارة

أعلام ٧

عمر بن عبد العزيز

ضمير الأمة و خامس الراشدين

دار الوحدة للطباعة والنشر

حبيبي أحمد

في عيد ميلادك السعيد، أهدي إليك كتابا عزيزا عليّ..
كتبته عن إنسان عزيز على كل مسلم.. إنه عمر بن عبد العزيز..
وأتمنى على الله - يا أحمد يا حبيبي - أن تقرأ هذا الكتاب قريبا..
وأن تتعلم من سيرة هذا الإمام العظيم.. فهو قدوة حسنة.. وكيف لا.. وهو ضمير الأمة الإسلامية..
وخامس الخلفاء الراشدين..
كل سنة وأنت طيب يا أحمد.. أنت وبابا وماما.. ومريم.. ويحيى.. وكل الأسرة، يا حبيب جدو.. يا أحمد

عمر بن عبد العزيز

ضمير الأمة و خامس الراشدين

جدو
محمد عماد
٢٠٠٣
١٢/٨

د. محمد عمارة

عمر بن عبد العزيز

ضمير الأمة

و

خامس الراشدين

الوحدة

جميع الحقوق محفوظة

١٩٨٥

شارع ليون - الحمراء - بناية مبيشر
ص.ب ١١٣/٦٣٨٤ هاتف: ٣٥٣٨٨٥
برقيًا (دار الوحدة) بيروت - لبنان

مقدمة الطبعة الجديدة

ليس هناك عاصم للحضارة ـ أية حضارة ـ من الفناء إلا بـ «التجديد»..

وليس هناك معنى للحياة إذا هي خلت من «العدل»، أو من شرف النضال في سبيل أن يسود حياة الناس، ويتأسس عليه المجتمع الذي يعيشون فيه!».

وفي الإسلام تعلمنا ونتعلم أن «التجديد» قانون وسنة من سنن الله، إذ «يبعث الله لهذه الأمة على رأس كل مائة من يجدد لها دينها»[1].

---

(١) حديث شريف. رواه أبو داود في [السنن].

وفي الاسلام تعلمنا ونتعلم كيف علا ويعلو مقام «العدل»، حتى لقد أصبح واحداً من أسماء الله الحسنى؟!..

* * *

وعندما ألف المسلمون في «التجديد»، كفن من فنون الحضارة الاسلامية، انعقد إجماع الجمهور على أن عمر بن عبد العزيز هو طليعة سلسلة المجددين في حياة هذه الأمة وحضارتها!».

وهذا «التجديد»، الذي نهض به عمر بن عبد العزيز، وارتاد ميدانه، لم يكن «كتباً» ألفها، ولا نظريات أودعها بطون «الأسفار».. وإنما كان «عدلاً» أعاد له السيادة في حياة الأمة وقوانين المجتمع، بعد أن خلعه ولاة الجور عن العرش الذي أجلسه عليه الاسلام!»

* * *

واليوم... يكاد الاجماع أن ينعقد على أن «التجديد» هو طوق النجاة لهذه الأمة من «التخلف الموروث»، الذي يشل فعالياتها بخرافات عصور الانحطاط وأساطيرها وشعوذاتها... وهو، أيضاً، طوق النجاة من «التغريب»، الذي جاءت به الحضارة الغربية العنصرية العدوانية، ليمثل بالنسبة لنا الاستلاب الذي يصيب شخصيتنا القومية بالمسخ والنسخ والتشويه!.

وعلى ضرورة «العدل»، أيضاً، كاد أن ينعقد الاجماع!...
فهو السبيل إلى تحرير الأمة من المظالم التي شلت الكثير من فاعلياتها، وأثقلت خطوها على درب التحرر والتقدم والانطلاق!..

ومن هنا تأتي الأهمية الخاصة لهذا الكتاب عن عمر بن عبد العزيز «عندما يتناوله، لا كما تناوله الكثيرون: عبداً من عباد الله الصالحين؟!» وإنما بالمنهج الذي يضع بين يدي القارىء والباحث المعاني الحقيقية «للصلاح» و «التقوى».. والتي لم تقف عند «النسك» و «الصلاة» و «الصيام».. وإنما كانت، بالدرجة الأولى: «تجديدا» لحياة الأمة، «بالعدل» ـ الذي يسبح به المسلمون، إسماً من أسماء الله ـ والذي طال شوق الأمة لأن تراه معياراً لحياتها، يوضع في الممارسة والتطبيق!..

* * *

لهذه الغاية كتبنا هذا الكتاب... ولها نقدم طبعته الثالثة، بعد أن نفدت طبعته الثانية بُعَيْد صدورها بوقت وجيز!..

والله من وراء القصد.. وهو ولي التوفيق.

دكتور محمد عمارة

جمادى الأولى سنة ١٤٠٥ هـ
فبراير (شباط) سنة ١٩٨٥ م

مقدّمة الطبعة الثانية

على امتداد قرون تاريخنا العربي الاسلامي كان عمر بن عبد العزيز شهاباً لامعاً ومضيئاً في الظلمات!.. وفي تراث المذاهب والتيارات الفكرية العربية الاسلامية تعددت الصفحات التي كتبت عن حياة هذا الشهاب الانساني المنير!.. وفي مكتبتنا العربية المعاصرة عشرات من الكتب التي ألفت عن عمر بن عبد العزيز!..

ومع ذلك.. فلقد ظلت الصورة الشائعة عنه لدى عامة المثقفين وجمهور العامة هي صورة: الرجل الصالح، الذي جعلته تقواه يهرب من الدنيا إلى الآخرة، ومن الأرض إلى السماء، والذي دعاه الصلاح والتبتل إلى الابتعاد عن سلوك الناس والاقتراب من نهج الملائكة المقربين!.. وخلف هذه

الصورة توارت قسمة من أهم القسمات التي ميزت الحياة والسلوك لهذا الرجل الجليل.. توارت قسمة الثورة الاجتماعية التي صنعها عمر بن عبد العزيز، والتي كانت التجسيد الأول والحقيقي لمعنى الصلاح والتقوى والتبتل الذي تميز به هذا الثائر القديس!..

فتقوى عمر بن عبد العزيز وصلاحه وتبتله لم يجعله يهرب من الدنيا إلى الآخرة، ومن الأرض إلى السماء، ومن سلوك الناس إلى نهج الملائكة المقربين بل جعله:

● الثائر الذي يغير الأرض، بالعدل، حتى ترضى عنه السماء!..

● والتقيّ الذي تعني التقوى عنده: الحس المرهف الذي يجعله يحمل، قبل غيره وأكثر من غيره، هموم الناس!..

● والعابد الذي يعبد الله بارجاع الحقوق لأصحابها، ورد المظالم إلى أهلها، بعد انتزاعها من غاصبيها، على حين كان آخرون يعبدون ربهم بإطالة اللحى والمسابح والركوع والسجود!..

ولإبراز هذه القسمة التي توارت - إن لم تكن طمست - صدر هذا الكتاب، الذي قدمنا طبعته الأولى إلى القراء في سبتمبر ١٩٧٨ م.

* * *

ويوم صدرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب كانت عشرات الكتب المؤلفة عن عمر بن عبد العزيز في متناول القراء، تحفل بها المكتبات، بل «والأرصفة»!.. بل لا نغالي إذا قلنا أن في كل بيت، بمصر، كتاب عن عمر بن عبد العزيز، فالكتب عنه هي بعض من «مقررات» وزارة التربية والتعليم على تلاميذ مدارسها!.. ومع ذلك فلقد نفدت الطبعة الأولى من هذا الكتاب ـ [أحد عشر ألف نسخة] ـ في أسبوع؟!.. ونفدت جميعها في مصر، دون تصدير نسخة واحدة منها؟!..

فماذا يعني ذلك؟!.. إنه يعني:

● شهادة نضج للقارىء العربي الذي لم ينجح «كتبة» الشرائح الاجتماعية الطفيلية في تزييف وعيه على النحو الذي يريدون وإلى المدى الذي يبغون!

● ودليلاً على تعطش الانسان العربي إلى «العدل»، عندما يقبل على صفحات تراثه التي أشرقت بنوره كي يتزود بها في صراعه ضد الظلم والجور اللذين يكبلان منه الطاقات والملكات!..

● وشاهداً على قوة الحق وسلطان الحقيقة، عندما يتجسدان في الكلمة الصادقة المهداة إلى الناس!..

● وبرهاناً ساطعاً وقاطعاً على أن إنساننا المعاصر يعي، أكثر من الأدعياء، معنى «التراث»، وأي الصفحات يريد من هذا

التراث! فهو يريده طاقات خلاقة ومبدعة، تسهم في تحطيم قيوده، وتدفع مسيرته إلى الأمام، وتعينه على صنع مستقبله المشرق، ومجتمعه العادل، وتوحيد أمته ذات الحضارة المتميزة والتراث الغني العريق! ولا يريده قيوداً تثقل الخطا، ولا أكفاناً لموتى لسنا بعد نشرف «موتى» لا يريدون «يعيشون»؟!..

نعم. ذلك ما يعنيه نقاد كتاب هذا عن [عمر بن عبد العزيز] في ذلك الزمن القياسي مع «رجحم المكتبة العربية بعشرات الكتب عن ذلك الخليفة العظيم

ولما كان واجبا علينا أن نحيي ونشكر «القارىء العربي الجاد، الذي صمد ويصمد أمام المؤمرة الرجعية لتزييف وعيه وتحاصره ومستقبله، فنحن لا نملك إلا أن نجدد تحيتنا وشكرنا في صورة هذه الطبعة الثانية من هذا الكتاب نقدمها للقارىء العربي والمسلم على الأرض العربية وفي عالم الاسلام

مع الرجاء والدعاء أن يمنحنا الله التوفيق لمزيد من كلمات الحق نقولها في مواجهة السلاطين الجائرين!

دكتور محمد عمارة

القاهرة: يوليو ١٩٧٩ م

بطاقة حياة

[كان همّه بالناس أشد من همّه بنفسه!
ومازال يرد المظالم منذ يوم استُخلف إلى يوم
مات ١٩]

نعم . . إنه أمير من أمراء بني أمية ـ أبو حفص، عمر بن عبد العزيز (٦١ ـ ١٠١ هـ ٦٨١ ـ ٧٢٠ م) . وإذا كان أبوه لم يجلس على عرش خلافة الدولة، إلا أنه قد تولى الامرة والولاية بمصر، وعلى عرش الخلافة جلس أخوه عبد الملك بن مروان. .

ولكن هذا الأمير الشاب الذي يحمل أصالة الفرع الأموي من قريش عبر أبيه عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ـ قد حملت أصوله النسبية والعقلية إلى بني أمية نسباً جديداً وخلقاً جديداً، فأمه هي أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب!

وهو لم ينشأ، كغيره من فتيان بني أمية وأمرائها، في الشام، حيث عصبية الدولة الأموية وولاؤها الطاغي وسلطانها الذي لا يدافع، وانما ولد ونشأ في مدينة الرسول عليه الصلاة

والسلام، حيث حركات المعارضه وتيارات السخط، الظاهره أو الخفية، لحكم بني أميه وما أحدثو في حياه الاسلامية من مظالم وتعبيرات. وحيث يستطيع امرء، إذا ما صفت رويته وخلصت نواياه، أن يبصر الخالب الأحر من صورة الدوله والمجتمع، الصورة المقدسة والناقصة، لم تتزين به صورة الدوله وعاصمتها وحاشيتها من ترف وثراء وعطاء و نعمت

نشأ عمر بن عبد العزيز بالمدينة، أميراً من أمراء الدوله، يستمتع بما توفره الامارة لمثله من رفاهيه وميزات ولكن المناخ العلمي المدينه الرسول قد أتاح له أن يسلك درب العلم، فارتقى مدارجه حتى أصبح، وهو شاب، واحداً من علماء الاجتهاد، حتى لقد وصفه ميمون بن مهران بأنه «كان معلم العلماء»[1].

وفي الخامسة والعشرين من عمره، على عهد الوليد بن عبد الملك (٨٦ ـ ٩٦ هـ، ٧٠٥ ـ ٧١٥ م) تولى عمر بن عبد العزيز امرة المدينه. (ربيع الأول سنة ٨٧ هـ فبراير سنه ٧٠٦ م) ـ فبدأ فيها تجاربه الأولى في السياسة والحكم، وخبر بها ثقل المسؤولية التي لا بد أن ينهض بها لمصلح أو الثائر حتى ما تراكم على الحياة الاسلاميه من مظالم و انحرافات وتجاوزات

---

(١) (طبقات ابن سعد) ج ٥ ص ٢٧١ طبعة دار تحرير القاهره

وأدرك الوالي عمر بن عبد العزيز أن التحول الأساسي الذي أحدثته الدولة الأموية منذ خلافة معاوية بن أبي سفيان (٤١ - ٦٠ هـ ٦٦١ - ٦٨٠ م) فقلبت به نظام الحكم الإسلامي الذي أسسه الخلفاء الراشدون، قد تمثل في الانقلاب على فلسفة الحكم، فبدلاً من الشورى والاختيار، أصبح ملكاً وراثياً عضوضاً، الأمر الذي حرم الأمة من فرص الحرية في التغيير، ومن ثم حرمها إمكانية الإصلاح في ميادين الثروة والاقتصاد، فكانت المظالم التي أصبح الناس يئنون تحت نيرها، وتنفجر ضد بشاعتها، بين الحين والحين، التمردات والانتفاضات والثورات. أدرك عمر ذلك، فدعا عشرة من فقهاء المدينة وقادة الرأي فيها، وهم: عروة بن الزبير، وعبيد الله بن عتبة، وأبو بكر بن عبد الرحمن، وأبو بكر بن سليمان بن أبي حثمة، وسليمان بن يسار، والقاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، وسالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الله بن عبد الله بن عمرو بن العاص، وعبد الله بن عامر بن ربيعة، وخارجة بن زيد. دعاهم فكوّن منهم مجلس شورى للولاية، وحدد لهم مهام مجلسهم هذا: معاونة الوالي على الحق، والتنبيه على المظالم والتعديات، والحيلولة دون الوالي ودون الانفراد بالقرار: «ما أريد أن أقطع أمراً إلا برأيكم»[1].

---

(١) (تاريخ الطبري) ج ٦ ص ٤٢٧، ٤٢٨، طبعة دار المعارف، القاهرة.

وفي ظل ولاية عمر بن عبد العزيز على المدينة عادت مدينة الرسول، عليه الصلاة والسلام، لتصبح، كما كانت من قبل، حرماً آمناً للمسلمين. فرح إليها الرافضون لنظام الحجاج بن يوسف (٤٠ ـ ٩٥ هـ ٦٦٠ ـ ٧١٤ م) في العراق، ووجدوا فيها المناخ الملائم لفكرهم الثائر ضد العسف والجور اللذين تجسدا في الحجاج.. كما وجدوا عند أميرها العقل الذي يتفهم والقلب الذي يتألم والفكر الذي يتعاطف مع أحلامهم في الحرية والعدل بين الناس. حتى لقد كتب عمر بن عبد العزيز إلى الوليد بن عبد الملك يشكو إليه ما يصنع الحجاج بأهل العراق. وعلم الحجاج بذلك، فزادت كراهيته لعمر، وكتب إلى الخليفة يحذره من نزعة التمرد الثوار بالمدينة، في ظل ولاية عمر بن عبد العزيز، وقال «إن من قبلي من مزق أهل العراق وأهل الشقاق قد حنوا عن العراق، ولجأوا إلى المدينة ومكة، وبين ذلك وهن، وضعف من الدولة تخشى عواقبه!» فاستجاب الخليفة لرغبة الحجاج، وطلب منه أن يرشح ولاة جدداً لكل من مكة والمدينة، فرشح عثمان بن حيان للمدينة، وخالد بن عبد الله لمكة. ومن ثم عزل الوالي عمر بن عبد العزيز! فغادر المدينة منفياً، إلى حيث أقام في قرية تسويداء، من قرى حوران، قرب دمشق، على الطريق بينها وبين المدينة. وعندما كان يغادر مدينة الرسول، التفت إلى مولاه «مزاحم» وواساه، في أسى، عندما قال «أخاف أن

يكون ممن نقته طيبة؟!(١).

لكن الفتى الصالح والأمير الطامح إلى عدل الإسلام لم يوقفه العزل ولا النفي عن توجيه النقد للظلم البادي والمظالم التي يئن منها الناس، فأخذ يشكو إلى ربه ولاة الظلم والجور الذين اجتمعوا على حكم المسلمين في مختلف الأمصار والأقاليم «الحجاج بالعراق، والوليد بالشام، وقرة بمصر، وعثمان بالمدينة، وخالد بمكة! إنهم قد امتلأت الدنيا ظلماً وجوراً، فأرح الناس؟!..»(٢)

وحتى بعد وفاة الوليد بن عبد الملك، وخلافة سليمان بن عبد الله (٩٦ - ٩٩ هـ ٧١٥ - ٧١٧ م) - الذي قرب عمر بن عبد العزيز إلى ما يشبه منصب الوزارة - لم يتوقف نقده للمظالم التي سادت حياة الدولة والناس. وعندما احتج والي مصر أسامة بن زيد بأن هذه المظالم هي تنفيذ لسياسة الخليفة، قال له عمر بن عبد العزيز: إن الخليفة لن يغني عنك من الله شيئاً؟!(٣) فلقد أصبحت التقوى لدى الرجل ضميراً مرهفاً

---

(١) المصدر السابق ج ٦ ص ٤٨١، ٤٨٢ (وطيبة هي المدينة والعبارة تشير إلى الحديث النبوي «إن المدينة تنفي خبثها كما ينفي الكير خبث الحديد!»

(٢) ابن الأثير (الكامل في التاريخ) جـ ٤ ص ٢٢٢ طبعة القاهرة سنة ١٣٠٣ هـ

(٣) الجهشياري (الوزراء والكتاب) ص ٥١، ٥٢ طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨ م

وحساساً، يستشعر الألم الحاد والعنيف لأدنى انحراف يصيب الفرد أو الدولة أو الأمة عن صراط الاسلام المستقيم وعدله الذي تمثل في حكم الرسول، عليه الصلاة والسلام، ودولة الخلفاء الراشدين حتى لقد أصبح، وسط أمراء بني أمية، الضمير الذي يعصف عليهم الاستمتاع بالشهوات والملذات، والنذير الذي يزعجهم كي يستيقظوا من الغفلة التي فيها يعيشون. وعندما سأله الخليفة سليمان بن عبد الملك، في لحظة فتحار وهو بما هو فيه من ملك عظيم ونعيم مقيم، فقال:

- يا عمر، كيف ترى ما نحن فيه؟ (كان الجواب)

- سرور، لولا أنه غرور! وحياة، لولا أنه موت! وملك لولا أنه هلك! وحبس، لولا أنه خرج! ونعيم، لولا أنه عذاب أليم؟![1]

ولم تكن هذه التقوى عند عمر بن عبد العزيز صلاة أكثر وصوماً أدوم ومسبحة أطول، ودارة ظهر لدنيا ومشكلات الحياة، بل كانت أول ما كانت، جهاداً في سبيل ازالة الظلم، ونزع الثروات والثراء من أيدي المغتصبين وردها إلى الأمة كانت - في إيجاز - حمل هموم الناس، والجهاد كي يسود العدل بين الناس.

---

(١) المسعودي (مروج الذهب) ج ٢ ص ١٤٠ طبعة دار التحرير بالقاهرة سنة ١٩٦٦ م

فولاة المدينة، قبل عهد عمر بن عبد العزيز، وكثير منهم الذين اشتهروا بالظلم والجور، كانوا ينفقون، من أموال «العشر والصدقة»، على إيقاد «المجامر» في مسجد الرسول كي يعبق بالروائح الزكية، بل كانوا يطيبون هذا المسجد بالطيب! فلما تولى عمر الحكم منع ذلك، بل وطلب «محو آثار ذلك الطيب من المسجد!»[1].

وعلى حين كان البعض يكتفي من الصلاح والتقوى بالمظاهر والأشكال، فإن عمر لم يكن بين عينيه أثر للسجود ولا علامة له!..[2]..

ولقد تعدت رحمته ورأفته نطاق الإنسان، فشملت الحيوان، حتى لقد نهى عمال البريد عن أن يضعوا في طرف السوط الذي يتحسسون به المدينة حديداً؟! ومنع أصحاب الدواب من إلجامها باللجم الثقال؟![3] وفي ذات الوقت تلعب شدته في الحق وجبروته في العدل إلى الحد الذي هدد فيه أمراء أسرته بالذبح إن هم حالوا بينه وبين الثورة التي أعلنها والتي انتزع بها الأموال من أيديهم فردها على الفقراء، فقال: «إن

---

(١) (طبقات ابن سعد) ج ٥ ص ٢٩٥.

(٢) المصدر السابق ج ٥ ص ٢٩٨

(٣) أبو يوسف (الخراج) ص ١٨٦ طبعة المطبعة السلفية بالقاهرة سنة ١٣٥٢ هـ.

لله في بني مروان دنحا، وأيم الله لئن كان ذلك الذبح على يدي!»[1].

لم تكن تقوى صلاة أكثر ولا صياماً أطول ولا مسبحة مدلاة . وكما قالت زوجه فاطمة بنت عبد الملك، عندما ذهب إليها الفقهاء - بعد موته - معزين، وسائلين عن أسرار تقوى الخليفة الصالح، فقالوا لها:

- أخبرينا عنه، فإن أعلم الناس بالرجل أهله (قالت فاطمة)

- والله ما كان بأكثركم صلاة ولا صياماً ولكن، والله ما رأيت عبداً أشد خوفاً لله من عمر، كان همه بالناس أشد من أمر همه بنفسه قد فرغ بدنه ونفسه للناس، يقعد لحوائجهم يومه، فإذا أمسى وعليه بقية من حوائجهم وصله بليلته![2]

بل لقد بلغت به تقوى، التي تجسدت في إحساسه المرهف بمسؤولية الكبرى عن قضاء الأمة وعامتها ووضعه حيال تحقيق العدل لهم إلى الحد الذي أفسدت لذة زوجته بحيائها الزوجية ودهشة لم تستمتع به امرأة عندما تخلو كزوجة، إلى زوجها، حتى بقد تمنت على ربها أن لو بعدت الخلافة والإمرة عن

---

(١) (طبقات ابن سعد) ج ٥ ص ٢٥٣

(٢) أبو يوسف (الخراج) ص ١٦، ١٧

حياتها الزوجية بعد ما بين المشرقين. فأنت هذه الزوجة الصابرة عن زوجها الصالح!» ووالله، إن كان عمر ليكون في المكان الذي ينتهي إليه سرور الرجل مع أهله، فيذكر الشيء من أمر الله فيضطرب كما يضطرب العصفور قد وقع في الماء، ثم يرتفع بكاؤه حتى أطرح اللحاف عني وعنه رحمة به؟! ووالله لوددت لو كان بيننا وبين هذه الإمارة بعد ما بين المشرقين!» وعندما كانت تسأله السبب كان يقول: «لقد توليت أمر هذه الأمة، أسودها وأحمرها، فذكرت الغريب القانع الضائع، والفقير المحتاج، والأسير المقهور، وأشباههم في أطراف الأرض. فخفت على نفسي حساب الله عن هؤلاء الناس!»[1].

لقد حولته التقوى إلى ضمير للأمة. وزادت روح الإسلام وتعاليمه من حساسية هذا الضمير!..

* * *

وكان واضحاً، وطبيعياً، أن أميراً هذا هو حاله وذلك هو تكوينه، لا بد وأن يكون غريباً عن الواقع الذي يلهو فيه ويستمتع به الآخرون من أمراء بني أمية. وكان مستبعداً كذلك أن يعهد إلى مثله بتولي منصب الخلافة بعد سليمان بن عبد الملك. ولكن مشورة صالحة من عالم صالح هو رجاء بن

(١) المصدر السابق، ص ١٧

حيوة (١١٢ هـ ٧٣٠ م) أقنعت سليمان بن عبد الملك بأن يعهد بالخلافة من بعده لعمر بن عبد العزيز، فلما من صلاحه وتقواه، ومن خبرته في الامرة والوزارة ما يجعل الأمل كبيراً في أن يصلح الله به الأحوال، وكان مرض الخليفة فرصة مواتية لاقناعه، فقد رأى في ذلك عملاً صالحاً يتقرب به إلى الله وهو يعتذر للرب ويستقبل الحساب والجزاء[1]. ولكنه فكر، وأيقن أن قراراً كهذا لا بد أن يلقى معارضة الأمراء الآخرين، فتحايل للتخفيف من معارضتهم بأن جعل الخلافة بعده لعمر بن عبد العزيز، ثم من بعده ليزيد بن عبد الملك. فقد قال: «والله ان وليت عمر، ولم أول أحداً سواه، لتكونن فتنة، ولا يتركونه أبداً يلي عليهم إلا أن يجعل أحدهم بعده يزيد بن عبد الملك أجعله بعده، فإن ذلك مما يسكنهم ويرضون به»[2]. وكتب عهده هذا، وختمه، وطلب من الأمراء أن يبايعوا بالخلافة لمن عهد إليه، دون أن يعلموا من هو المعهود إليه بالخلافة!..

---

(١) كان السبب الأول في تقريب عمر بن عبد العزيز إلى الخليفة سليمان بن عبد الملك هو عداء الخليفة السابق الوليد بن عبد الملك لعمر بن عبد العزيز، وما كان الوليد قد هم بعزل سليمان وزحزحته عن منصب الخلافة، ثم لم يتمكن، فقد قرب سليمان كل المبعدين في عهد الوليد، ومنهم عمر بن عبد العزيز، فقدر أن يكون وزير لسليمان. ومهد ذلك طريقه لولاية العهد من بعده!

(٢) (تاريخ الطبري) ج ٦ ص ٥٥٠.

وهكذا تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة (في ٢١ صفر سنة ٩٩ هـ ٣ نوفمبر سنة ٧١٧ م) - فوجد الرجل الصالح، والأمير الطموح في العدل، وجد نفسه في قمة السلطة التي طالما وصفها بالظلم، ووجه لها النقد، وتحدث عن ضرورة العودة بها إلى طريق الحق والعدل بين الناس

فماذا فعل؟ هل خضعته السلطة الظالمة؟ أم ثار هو عليها، ومن داخلها، فهدم صرحها الشامخ، وأقام بدلاً العدل الذي طالما حلم به مع المعارضين والمصلحين والثوار؟؟

ذلك هو الموضوع!..

لغة جديدة

[لستُ بقاضٍ، ولكني منفذ!.. ولستُ بخيركم، ولكني رجل منكم، غير أن الله جعلني أثقلكم حملاً؟!

ألا وإن الرجل حارب من الإمام الظالم ليس بعاصٍ، ولكن الإمام الظالم هو العاصي؟!]

عمر بن عبد العزيز

منذ أن أعلن سليمان خليفة جديد، وعرف العام والخاص أنه عمر بن عبد العزيز، أيقن جهور الدولة الأموية، وخاصة الأمراء والولاة، أنهم بإزاء تغيير هو أشبه ما يكون بالثورة، أو في أقل الأحوال - الانقلاب! ولقد قرع الأمير الصغير هشام بن عبد الملك - وكان طامعاً في الخلافة - وصاح: لا نبايع عمر أبداً؟! ولكنهم اضطروه إلى تأكيد بيعته التي بايعها قبل وفاة سليمان، عندما بايع مع الآخرين من حدده سليمان في الكتاب المختوم..

ولم يشأ عمر أن يدع جهور الدولة هذه فرصة للمبادرة في حركة ضد ما يتوقعون منه من تغيير، فدعم بفرصة وامتلك هو زمام المبادرة بمجرد أن فرغ من الصلاة على جثمان الخليفة السابق ووارى جسده الثرى. فأمام قسر الخليفة السابق أعلن عزمه على إجراء تغييرات جذرية في جهور الدولة، بل وشرع فأصدر عدداً من قرارات التغيير بعدد من الولاة على الأقاليم والأمصار، عزل عامل مصر أسامة بن

زيد، وعزل يزيد بن أسلم!

ولقد جاءوا إليه بموكب ركوب الخليفة: البرز - (دواب الحمل الثقيل) - والخيل والبغال، ولكل دابة منها سائس خاص[1]، كي يركب ويعود بالموكب المعتاد، فرفض استخدام هذه الدواب والعودة بهذا الموكب، وقال لهم: دابتي أوفق لي؟! وبعد أن عاد على دابته، وسط الدهشة والتساؤل، دخل القصر، قصر الخلافة، فوجد الفرش التي كانت تبسط في مجلس الخليفة في انتظاره، فرفض أن يجلس عليها. ثم غادر القصر إلى المسجد، فصعد المنبر، وخطب في الناس، فسمعوا منه كلاماً لم يسمعوه منذ انتهت دولة الخلفاء الراشدين. فمنذ قامت الدولة الأموية وأسماع الناس قد ألفت خطب الخلفاء التي تطلب السمع والطاعة من الناس للخليفة صاحب القول الفصل والقرار الواجب النفاذ. أما عمر فإنه يعلن في الناس أنه ليس أكثر من منفذ للشريعة، وأن طاعته غير واجبة إن هو عصى الله أو خالف شريعته، وأن الإمام إذا ظلم، فخرج الناس عليه وقاوموه أو هربوا من جوره، فالظالم هو الإمام وليس الذين خرجوا عليه وقاوموه!. خطب عمر فقال:

وأما بعد، فإنه ليس بعد نبيكم نبي، ولا بعد الكتاب الذي أنزل عليه كتاب، إلاّ أن ما أحل الله حلال إلى يوم

(١) (تاريخ الطبري) ج ٦ ص ٥٥١.

القيامة، وما حرم الله حرام إلى يوم القيامة، إلا أني لست بقاض ولكني منفذ، ألا إني لست بمبتدع ولكني متبع، ألا إنه ليس لأحد أن يطاع في معصية الله، ألا إني لست بخيركم، ولكني رجل منكم، غير أن الله جعلني أثقلكم حملاً[1]، ألا إن الرجل الهارب من الإمام الظالم ليس بعاص، ولكن الإمام الظالم هو العاصي!..»[2].

وكانت العادة قد جرت، في المسجد، أن يجلس الأمراء وأركان الدولة والخاصة إلى جوار المنبر، ثم يتأخر العامة إلى ما وراء فرع يبرك كي يفصل بين العامة والخاصة في بيت الله! وأبصر الخليفة الجديد ذلك من فوق المنبر، فأشار إلى العامة أن يقدموا، فزحفوا حتى امتلأ بهم الفرع، واختلطت مجالس الناس!..[3]

وكان يزيد بن المهلب والياً على خراسان، وكانت في ذمته للدولة أموال اعترف بها، غنمها من الفتوحات، وقدرها هو في مراسلاته إلى سليمان بن عبد الملك بستة ملايين دينار، فلما مات سليمان عاد يزيد بن المهلب فأنكر إقراره، وزعم أن الأمر لم يخرج عن حديث المفاخرة بين وال وخليفته، إذ كان أصدقاء، فأرسل عمر بن عبد العزيز إلى يزيد كتاباً قال فيه

---

(١) (طبقات ابن سعد) ج ٥ ص ٢٥٠، ٢٥١

(٢) (مروج الذهب) ج ٢ ص ١٤٥

(٣) (طبقات ابن سعد) ج ٥ ص ٢٨٦

وأما بعد، فإن سليمان كان عبداً من عبيد الله، أنعم الله عليه، ثم قبضه، واستخلفني. وإن الذي ولاني الله من ذلك وقدر لي ليس عليّ بهين، ولو كانت رغبتي في إتخاذ أرواح واعتقاد - (جمع) - أموال كان في الذي أعطاني من ذلك ما قد بلغ بي أفضل ما بلغ بأحد من خلقه. وأنا أخاف فيما ابتليت به حساباً شديداً، ومسألة غليظة. إلا ما عافى الله ورحم!..

وعندما قرأ يزيد بن المهلب كتاب الخليفة الجديد، أدرك عمق التغيير - بل الانقلاب - الذي حدث في قمة السلطة بالدولة. فليست هذه هي لغة الخلفاء الذين خدمهم، ومن قبله خدمهم أبوه. وأيقن أن لا سبيل إلى الوفاق أو الاتفاق بينه وبين الخليفة الجديد.. فقال لأصحابه:

- لست من عمال عمر بن عبد العزيز! (فلما سألوه)

- ولم؟!.. - (كان جوابه): -

- ليس هذا كلام من مضى من أهل بيته، وليس يريد أن يسلك مسلكهم؟!..[1]

فكانت عبارته هذه التجسيد لما حدث في قمة السلطة من تغيير عميق الجذور!..

---

(١) (تاريخ الطبري) ج ٦ ص ٥٦٦، ٥٦٧

ولقد صدر قرار عمر بعزل يزيد بن المهلب عن ولاية خراسان ولما امتنع عن أداء ما في ذمته لبيت المال من أموال، وضعه عمر في السجن - رغم ما له من عصبية - وقال له «لا أحد في أمرك إلا حبسك، فاتق الله وأد ما عليك، فإنها حقوق المسلمين ولا يسعني تركها» وتحدث إلى مستشاريه عن يزيد وعصبته فقال «هؤلاء جبابرة، وأنا لا أحب مثلهم؟!»[1].

ثم شرع يتدبر أمر التغيير الشامل الذي أزمع على إحداثه في البنية الإدارية والاجتماعية والاقتصادية للدولة والمجتمع وبعبارة أخرى شرع يتدبر أمر الثورة التي قرر القيام بها من موقعه، في قمة السلطة، ومن داخل جهاز الدولة، الذي قرر تغييره، ثم استخدامه في إزمع على إحداثه من تغييرات! وقضى شهرين في التفكير والتدبير[2]

(١) المصدر السابق، ج ٦ ص ٥٥٦، ٥٥٧

(٢) أبو يوسف (الخراج) ص ١٦

السلام العام

[إن الذين خرجوا - [ثاروا] - غضباً لله ولنبيه، ليسوا أولى بذلك مني!.. فستناظر، فإن كان الحق بأيديهم دخلنا فيما دخل فيه الناس، وإلا نظرنا في أمرنا!.. فإني لن أكون ظهيراً للمجرمين؟!..]

عمر بن عبد العزيز

قد يدهش القارىء، بل والباحث، في المصادر الأولى لتاريخنا وتراثنا من ذلك التقدير والإجلال اللذين حظيت بهما شخصية عمر بن عبد العزيز من لدن التيارات الفكرية المختلفة والمتناقضة والمتصارعة في هذا التاريخ وذلك التراث

* فهو خليفة أموي ... ومع ذلك أحبه الهاشميون، وتعلق به آل البيت، ومدحه شعراء الشيعة وانشأوا فيه المراثي عندما مات!؟.

* وهو خليفة أموي ... ومع ذلك اقترب منه ثوار الخوارج، ووثقوا به، وهادنوه ... بل إن المرء ليكاد يشعر أن منهم من يعده واحداً من الذين يمذهبون بمذهبهم، أو اقتربوا من ذلك إلى حد كبير؟!..

* وهو خليفة أموي، تولى الخلافة بالعهد إليه من الخليفة السابق، أي بالميراث وليس بالشورى والاختيار العام ... ومع ذلك اعترف المعتزلة ... وهم من تيارات المعارضة الثورية للدولة

الأموية - به إماماً، وأثنوا عليه ثناء مستطاباً، وعاونوه، وانخرطوا في جهاز دولته - بل عدوه واحداً من رجالات فرقتهم وذكروه ضمن الطبقة العاشرة من طبقات - (حيان) - أعلامهم!..[1].

* والفقهاء، من أهل السنة، يتخذونه واحداً من أئمتهم ومع ذلك نرى المتصوفة يحتلونه مكاناً علياً بين أسلافهم الذين سبقوا إلى الطريق؟!.

هكذا تخلفت التيارات الفكرية المختلفة، بل المتناقضة والمتصارعة، من حول عمر بن عبد العزيز، بل وادعاه كل تيار من هذه التيارات!..

ورغم أن الحق واحد، فإن الكثير من هذا الحق قد كان ولا يزال مع كل هذه التيارات!..

فعمر بن عبد العزيز، عندما تولى الخلافة، كانت الصراعات السياسية والفكرية تمزق نسيج الدولة وتقطع روابط المجتمع، وكانت سجون الدولة، فضلاً عن مقابرها، تستقبل وفود الذين «حرمتهم» الدولة سياسياً وفكرياً، فعبر الصراعات

---

(١) القاضي عبد الجبار بن أحمد (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ٣٢٥. طبعة تونس سنة ١٩٧٢ م

القبلية التي أذكتها الدولة بتسعين تناقضاتها، والنعرات العنصرية بين العرب والموالي التي أشعلت نارها، كانت هناك تيارات معارضة ثائرة ضد بني أمية ودولتهم وما أحدثوا في الحياة الإسلامية من أحداث وتغييرات. فالخوارج ثائرون، والشيعة يعارضون، والمعتزلة يعارضون ويدعمون الثورة ويشتركون في أحداثها..

ولقد سبق لعمر بن عبد العزيز أن تعاطف مع الثائرين على تجبر الحجاج بن يوسف في العراق، وجعل من المدينة، تحت ولايته، مثابة وأمناً لهؤلاء الثوار. كما أنه هو الذي وصف أن المهلب بن أبي صفرة - وهم قبلة الخوارج وقادة جيوش الدولة التي تصدت لثورتهم - بأنهم «جبابرة» وأعلن أنه لا يحبهم! ثم ها هو يعزل يزيد بن المهلب، ويضعه في السجن.

وهكذا وجد عمر بن عبد العزيز نفسه - بعد أن حكمته أهدافه في الثورة على النظام القائم والوضع القديم - وجد نفسه على الطريق الذي حتم عليه التهادن، بل والتعاون مع التيارات المعارضة والثورية، ما دام هو ذاته قد استهدف ما سعوا ويسعون لتحقيقه من أهداف: إزالة الجور، ورد المظالم، والعدل في اقتسام الثروة بين الناس! إنه ثائر على فلسفة الحكم الأموي، طامح لتغيير النمط الاجتماعي والتنظيم الاقتصادي الذي استقرت عليه الدولة منذ عهد معاوية بن أبي سفيان، فطبيعي، بل وحتمي، أن يتعاون مع المعارضين الجهار

الدولة القديم وتحالف مع الثائرين على الجور والمظالم التي زرعها الخلفاء الأمويون السابقون..

هكذا بدأ وأعلن عمر بن عبد العزيز ما يمكن أن نسميه «السلام العام» الذي شمل الجهاز الجديد لدولته الجديدة مع مختلف فصائل المعارضة وتيارات الثورة ومدارس الداعين إلى الاصلاح..

وقد بدأ عمر مرحلة «السلام العام» هذه بإلغاء مبدأ «التحريم» بسبب خلاف في الرأي والأهداف فلم تعد الدولة تعاقب على الرأي، ولا على النشاط السياسي على حين شدد عقابه على أصحاب الرأي والسياسة من المجرمين [1]، وذلك على عكس ما كان عليه الحال قبل إعلان «السلام العام»..

مع المعتزلة:

قبل خلافة عمر بن عبد العزيز - (سنة ٩٩ هـ) - كانت المعتزلة - وهم أبرز تيارات (أهل العدل والتوحيد) - قضيته من

---

(١) فيشر (تاريخ الدولة العربية) ص ٢٩٩ ترجمة د. محمد عبد الهادي أبو ريدة طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨ م

فصائل المعارضة للدولة الأموية، بدءوا مطلبها، وقبل كل شيء بديهي تحويل نظام الحكم من الشورى والاختيار إلى الملك الوراثي العضوض، وهم قد حكموا «فسقوا» معاوية بن أبي سفيان، بل قال بعضهم بكفره، ثم تطورت اتهامهم لبني أمية في حكمهم عليهم بأنهم «فسقة» مرتكبون للذنوب الكبائر، وأنهم، بذلك، وإن لم يكونوا كافرين، إلا أنهم غير مؤمنين، وأنصارهم في منزلة بين المنزلتين، وهم محكوم لهم بالنار. هكذا كانت معارضة المعتزلة للدولة الأموية قبل خلافة عمر بن عبد العزيز. بل لقد بلغت هذه المعارضة درجة الاشتراك في الثورة وتصدي المسلح لتغيير النظام فأسهموا في الثورة التي قادها عبد الرحمن بن الأشعث (٨٥ هـ ٧٠٤ م) ضد الحجاج بن يوسف، بالعراق، على عهد الخليفة عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٦ هـ ٦٨٥ - ٧٠٥ م) ومن أعلامهم الذين أسهموا في هذه الثورة معبد الجهني، وخعد بن درهم، وسعيد بن أبي الحسن[1] بح ابح وقصة معارضة الحسن البصري (٢١ - ١١٠ هـ ٦٤٢ - ٧٢٨ م) - وهو أبرز أئمة أهل العدل والتوحيد - لحكم الحجاج بن يوسف وبني أميه شهيرة وطويلة، وهي تؤكد وقوف المعتزلة في صف

(١) (فصل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ٣٢٠ و(تاريخ الطبري) ج ٨ ص ١٥١، ١٥٢، وكتاب لدين القاسمي (تاريخ الجهمية والمعتزلة) ص ٥٥ طبعة القاهرة سنة ١٣٣١ هـ.

المعارضة، والثورة، ضد الأمويين[1].

ولقد سبقت إشارتنا إلى تعاطف عمر بن عبد العزيز - أيام ولايته على المدينة، قبل خلافته - مع الثائرين على الحجاج، وكيف جعل من ولايته مثابة للثائرين وأمنا. فلما أن ولي الخلافة كانت المعتزلة من أبرز فصائل المعارضة التي تعاون معها واستعان بها على إنجاز الثورة التي قام بها من قمة السلطة في الدولة..

والأدلة التي تحكي علاقة عمر بن عبد العزيز بالمعتزلة خاصة، وبأهل العدل والتوحيد عامة، والتي ترسم هذا الجانب غير المعروف من حياة هذا الخليفة الصالح، هذه الأدلة كثيرة وأكيدة.. ومنها، على سبيل المثال:

١ - يذكر المعتزلة - كما سبقت إشارتنا - عمر بن عبد العزيز في عداد أئمتهم وأعلامهم، ويوردون ذكره في الطبقة - (الخيل) العاشرة من طبقات أعلامهم[2].

٢ - ولقد بلغ توثق العلاقة بين عمر بن عبد العزيز وبين الحسن البصري، قبل الخلافة وبعدها، إلى الحد الذي كان

---

(١) أنظر كتاب (المعتزلة والثورة) ص ٥٠ - ٥٨ طبعة بيروت سنة ١٩٧٧ م

(٢) (فصل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ٣٢٥

الحسن البصري يكتب فيه إلى عمر فيبدأ بذكر اسمه قبل اسم عمر! أي يبدأ كتابه بعبارة «من الحسن بن أبي الحسن إلى عمر بن عبد العزيز!» ولما ولي عمر الخلافة نصح بعض الحسن البصري أن يغير من ترتيب الأسماء في العبارة، فيقدم اسم الخليفة على اسمه، لأن الرجل - كما قال هذا البعض - قد ولي وتغير!»، ولكن الحسن أنكر ذلك، وقال «لو علمت أن غير ذلك أحب إليه لاتبعت محبته!» وظل يكتب إليه مقدماً اسمه على اسم أمير المؤمنين[1]!..

ولقد كانت إدانة الحسن البصري للدولة الأموية تتمثل، ضمن ما تتمثل، في الامتناع عن ولاية وظائفها، وخاصة القضاء، ثم حدث أن قبل ولاية قضاء البصرة في خلافة عمر بن عبد العزيز[2]، فكان دليلاً على تغير موقف أهل العدل والتوحيد من الدولة، وتغير موقفها منهم، والعلاقة الجديدة بينهم وبين جهازها الجديد..

ويأتي في هذا السياق تولي محمد بن سويد الفهري - وهو من المعتزلة[3] - إمارة دمشق وهي العاصمة، من قبل عمر بن عبد العزيز..

---

(١) (الأغاني) للأصفهاني ج ٩ ص ٣٣٨٦ تحقيق إبراهيم الأبياري طبعة دار الشعب. القاهرة

(٢) (تاريخ الطبري) ج ٦ ص ٥٥٤

(٣) (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ٧٠

٣ ـ ولقد أدى اشتراك المعتزلة ـ قبل خلافة عمر ـ في الثورة ضد الدولة، والمعارضة لها إلى تحريم الدولة لهم، ومن ثم إلى قطع «العطاء» والحقوق عن رجالاتهم، فلما جاء عهد عمر بن عبد العزيز قرر إعادة «العطاء والحقوق» إلى هؤلاء المعارضين والثوار، أعاد إلى الحسن البصري عطاءه، فقبله، وأعاد إلى عبد الله بن العلاء بن زبر (١٦٤ هـ) ـ وهو من المعتزلة[1] ـ عطاءه، بل ورد إليه عطاء السنوات السابقة، ويعتذر ابن العلاء: «قلت لعمر بن عبد العزيز: يا أمير المؤمنين، عصيت سنوات، إني كنت في العصاة، وحرمت عطائي، فرد عليّ عطائي، وأمر أن يخرج لي ما مضى من السنين[2]»!

ولقد اشترط بعض أئمة المعتزلة وأهل العدل والتوحيد لقبول العطاء أن يعمم عمر بن عبد العزيز ذلك على كل الذين حرموا عطاءهم فيما سبق من السنوات، حتى لا يكون هناك حرج للخليفة في إعطائه القادة دون العامة، فقال ـ مثلاً ـ محمد بن سيرين: «إن فعل الخليفة ذلك بأهل البصرة فعلت، وأما غير ذلك فلا»! وكان جواب خارجة بن زيد: «إن لي نظراء، فإن عمهم أمير المؤمنين بهذا فعلت، وإن هو خصني به فإني أكره ذلك له»! ولقد اعتذر الخليفة بأن المال

---

(١) المصدر السابق. ص ٩٩.

(٢) (طبقات ابن سعد) ج ٥ ص ٢٥٦.

لا يكفي لإصلاح خطاء الماضي بالنسبة لكافة المتضررين «إن المال لا يسع ذلك، ولو وسعه لفعلت»[1]!

٤ ـ والعلاقة بين عمر بن عبد العزيز وبين غيلان الدمشقي ـ وهو قائد المعتزلة في الشام ودور غيلان في جهاز دولة عمر، دليل على التحام هذه القضية «الفكرية ـ السياسية الثائرة» ـ بالتجربة الثورية لعمر بن عبد العزيز.

فغيلان قد كتب إلى عمر يحدثه عن رأيهم في الحرية والاختيار والقدرة والمسؤولية التي يثبتونها للإنسان، وينفي أن يكون الله، هو الفاعل والمسؤول عن فعل الإنسان. فقال، ضمن ما قال: «فهل وجدت، يا عمر، حكيماً يعيب ما صنع؟! أو يصنع ما يعيب؟! أو يعذب على ما قضى؟! أو يقضي ما يعذب عليه؟! أم هل وجدت رشيداً يدعو إلى الهدى ثم يضل عنه؟! أم هل وجدت رحيماً يكلف العباد فوق الطاقة؟! ويعذبهم على الطاعة؟! أم هل وجدت عدلاً يحمل الناس على الظلم والتظالم؟! وهل وجدت صادقاً يحمل الناس على الكذب والتكاذب بينهم؟! كفى بيان هذا بياناً، وبالعمى عنه عمى»[2]!..

---

(١) المصدر السابق ج ٥ ص ٢٥٦ ـ ٢٥٧ وج ٧ ق ١ ص ١٤٧

(٢) ابن المرتضى (المنية والأمل في شرح كتاب الملل والنحل) لوحة ٤٨ مخطوط مصور بدار الكتب المصرية.

ثم سأل غيلان عمر عن حقيقة مزاعم أهل الشام - بني أمية - حول فكرة إزاء هذه القضية، التي هي أصل من الأصول الفكرية الخمسة للمعتزلة، فقال له: «إن أهل الشام تزعم أنك تقول في المعاصي أنها بقضاء الله تعالى»؟! فجاءه جواب عمر مؤكداً أنه، في هذه القضية، على مذهب المعتزلة، لا مذهب الجبرية من أهل الشام! قال لغيلان: «ويحك يا غيلان! أولست تراني أسمي مظالم بني مروان ظلماً[1]»؟! إذ لو كان فاعلها هو الله لما سميتها ظلماً!

* ثم كتب غيلان إلى عمر يدعوه إلى أن يجعل من «إمامته» إمامة الهدى التي دعا إليها القرآن، لا «إمامة» الضلال التي كان عليها أسلافه الأمويون: «... إعلم، يا عمر، أنك أدركت من الإسلام خلقاً بارياً ورسماً عافياً، وربما نجت الأمة بالإمام، وربما هلكت بالإمام، فانظر أي الإمامين أنت؟! فإنه تعالى يقول: ﴿وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا﴾[2] فهذا إمام هدى، ومن أتبعه... وأما الآخر فقال تعالى: ﴿وجعلناهم أئمة يهدون إلى النار، ويوم القيامة لا ينصرون﴾[3]...»[4]

* ولقد اقترنت هذه المكاتبات، التي هي أشبه ما تكون

---

(١) (فصل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ٣١٥

(٢) الأنبياء: ٢٦

(٣) القصص: ٢٨

(٤) (المنية الأمل) اللوحة ٤٨

بالمفاوضات بين خليفة عازم على إحداث ثورة من خلال السلطة، وبين قائد تنظيم ثوري خارج جهاز السلطة، اقتربت هذه المكاتبات من مجال اتخاذ القرار، قرار التحام التنظيم الثوري بالخليفة الثائر. وذلك عندما كتب عمر بن عبد العزيز إلى عيلان يتحدث إليه، شاكياً، عن ثقل المسؤولية وعظم المطامح والآمال مع قلة الأعوان الصادقين الذين يعينون على بلوغ الأهداف. شكى عمر إلى عيلان «ما وقع فيه مما ابتلي به من أمر المسلمين، وقلة الأعوان على الخير! ويسأله المعاونة له على ما هو فيه، قائلاً: أعني على ما أنا فيه؟!». فكانت الاستجابة الفورية من عيلان، عندما كتب إلى عمر: «بلغني كتاب أمير المؤمنين، يذكر فيه ما ابتلي به من أمور المسلمين، وقلة الأعوان على الخير، حيث خاف العالم فلم ينطق، وجهل الجاهل فلم يسأل. يطلب مني المعاونة فيما أنعم الله عليّ. نعم، فإني لن أكون ظهيراً للمجرمين»!

ثم طلب عيلان إلى الخليفة أن يوليه أخطر المهام الثورية: مهمة انتزاع الثروات المغتصبة من الذين اغتصبوها، بما فيها من اقطاعات، وأموال، وتحف ونفائس، وإعادتها إلى بيت مال المسلمين، ملكاً عاماً للأمة جمعاء. طلب عيلان ذلك فكتب إلى عمر يقول: «وبني بيع الخزائن ورد المظالم»! فاستجاب عمر، وولاه ذلك. فكان يقف بساحات دمشق وميادينها يثير مشاعر الناس ويستنهض طاقاتهم الثورية ضد النظام الذي شرع عمر بن عبد العزيز في تحطيمه، وذلك أثناء عرضه

الثروات المصادرة من أمراء بني أمية للبيع، فينادي عليها ويقول: «تعالوا إلى متاع الخونة! تعالوا إلى متاع الظلمة! تعالوا إلى متاع من خلف الرسول في أمته بغير سنته وسيرته»..

- ثم يتساءل متعجباً: «من يعذرني ممن يزعم أن هؤلاء كانوا أئمة هدى، وهذا يأكل والناس يموتون من الجوع»؟!

- ويُذكر المؤرخون أن من بين ما باعه عيلان في مصادرات بني أمية: جوارب من الحرير، محلاة «منكلة» بالمعادن النفيسة، بلغ ثمنها ثلاثين ألف درهم[1]!

هكذا التحم المعتزلة الثوار بالخليفة الثائر، فولد جهاز دولته الثوري الذي سعى لانجاز المهام الثورية التي طمح إليها الخليفة عمر ابن عبد العزيز وكل فصائل الثورة ضد مظالم الأمويين..

ومن هنا جاء تقويم المعتزلة، وهم الذين لا يعترفون بالإمامة والخلافة إلا من نالها بالشورى والاختيار، جاء تقويمهم لإمامة عمر ابن عبد العزيز تقويماً إيجابياً، فقدموا لها «تكييفاً» فقهياً مؤداه: أن عمر بن عبد العزيز، وإن لم تنل الخلافة بالشورى والاختيار، وإن كان قد تولاها بالعهد من الخليفة

---

(١) المصدر السابق: اللوحة ٤٨ و(الخراج) لأبي يوسف: ص ١١٤

الذي سبقه، إلا أن عدله وثورته وما أحدث في السلطة والمجتمع من تغير جذري وعميق، يقوم مقام الشورى والاختيار، لأن عدله قد حقق رضاء الناس عنه ورضاهم به، وهذا الرضا هو بمثابة البيعة والاختيار، بقوم مقامها، ولم يكن قد جاء تالياً لتاريخ التولي والتنصيب. وعن هذا «التكييف الفقهي» (القانوني) يتحدث إمام المعتزلة عمرو بن عبيد (٨٠ - ١٤٤ هـ ٦٩٩ - ٧٦١ م) فيقول «إن عمر بن عبد العزيز قد أحدث خلافة بغير حقها، ولا يستحقها، ثم استحقها بالعدل حين أحدثها»[1]. وبعبارة إمام آخر من أئمتهم، هو أبو علي الجبائي (٢٣٥ - ٣٠٣ هـ ٨٤٩ - ٩١٦ م) «إن عمر بن عبد العزيز كان إماماً، لا بالتفويض المتقدم، ولكن بالرضا المتجدد من أهل الفضل»[2]!..

وهكذا أصبح عمر بن عبد العزيز، لثورته وعدله، أول خليفة أموي تعترف المعتزلة بإمامته، والإمام الوحيد الذي صحت، عندهم، إمامته دون أن يتولاه بالشورى وبيعة الحرة والاختيار. لقد عدوه في عداد الأئمة، والأئمة الثوار، الذين أنكروا المنكر، وتصدوا، بالثورة، لولاة الجور وأئمة

---

(١) (مروج الذهب) ج ٣ ص ١٥٢

(٢) القاضي عبد الجبار (المغني في أبواب التوحيد والعدل) ج ٢٠ ق ٢ ص ١٥٠، ط. القاهرة

الضلالة، كما يقول القاضي عبد الجبار[1]. هذا عن علاقة عمر بن عبد العزيز بالمعتزلة - أهل العدل والتوحيد - ومكانهم من ثورته وجهاز دولته الثوري، ومن «السلام العام» الذي أعلنه ليشمل فصائل الثورة ودعاة الإصلاح وتيارات المعارضين لمن سبقه من الخلفاء الأمويين.

ومع الخوارج:

وكان الخوارج قد سبقوا سنة الثورة المستمرة ضد الدولة منذ حادثة «التحكيم» بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان في «صفين» سنة ٣٧ هـ، واستمرت ثورتهم، بل وازدادت عنفاً بعد استئثار الأمويين بالسلطة واشتداد المظالم التي شهدها المجتمع على أيدي خلفائهم وولاتهم. فما كانت تخمد لهم ثورة إلا لتندلع أخرى، ولا ينهزم لهم جيش حتى يجيشوا آخر بديلاً..

وفي خلافة عمر بن عبد العزيز ثار الخوارج بإقليم الجزيرة - شمالي العراق - بقيادة شوذب (بسطام) - من بني يشكر وكانوا في البداية ثمانين فارساً، أغلبهم من قبيلة ربيعة. ولأول مرة في تاريخ الدولة الأموية تقرر السلطة إدخال الخوارج في

---

(١) (تثبيت دلائل النبوة) ج ٢ ص ٥٧٤، ٥٧٥، تحقيق د. عبد الكريم عثمان. ط. بيروت ١٩٦٦ م

«السلام العام»، وتستبدل في الصراع معهم، الكلمات بدلاً من السيوف. ولم يكن ذلك استحواذ عن ضعف من عمر بن عبد العزيز، وإنما كان عن يقين بأحقية الخوارج في الثورة على الظلم، ومشروعية الثورات التي أشعلوها ضد ولاة الجور وأئمة الفساد. لكن أما والدولة قد أصبحت الآن ثائرة هي الأخرى لتحقيق العدل، فلا بد من السعي - بالسلام العام والحوار - لتوحيد قوى الثورة وفصائل الثوار. ولقد كتب الخليفة عمر بن عبد العزيز إلى شوذب - (بسطام) - يقول له: «بلغني أنك خرجت - (ثرت) - غضباً لله وسيره، وليس أولى بذلك مني، فهلم أناظرك فإن كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخل فيه الناس، وإن كان في يدك نظرت في أمرك».

فهو يعرض عليه المناظرة، ويتعهد، مسبقاً، بأنه إذا اظهر أن الحق مع الخوارج فإن الخليفة سيعيد النظر في شرعيته وشرعية دولته وسلطته! ولقد استجاب شوذب لدعوة عمر، وقال له: «لقد أنصفت»! وبعث إليه بوفد من مقدمة الخوارج دخلوا عاصمة الدولة بسلاحهم، ثم أرسل الوفد للمناظرة رجلين، أحدهما عربي من بني يشكر وثانيهما مولى من بني شيبان. فدخلا على عمر بن عبد العزيز، وناظره وكان بينهم حوار بدأه بقولهما:

أخبرنا عن يزيد بن عبد الملك - (ولي العهد بعد عمر - لم تقره خليفة بعدك؟!

ـ لقد صيره غيري ـ (فالخليفة سابق سليمان بن عبد الملك هو الذي عينه) ـ.

أفرأيت لو وليت مالاً لغيرك ثم وكلته إلى غير مأمون عليه، أترى ذلك أديت الأمانة إلى نفسك؟!

ووجد عمر بقوله وصحة في حجته الخوارج صحيح أن الذي عهد بالخلافة من بعده إلى يزيد بن عبد الملك بن هو، وإنما هو سليمان بن عبد الملك، ولكن ظان أن العهد قد وقع لغير أمين، فلا يصح إقراره من الخليفة الأمين! ولم يكتف عمر، بل طلب من مناظريه مهلة ثلاثة أيام ـ «أنظروني ثلاثاً»[1] ـ أي لعله قد فتح الله للنظر، أو لإعداده نظر في أمر من يتولى الخلافة من بعده، أي في النظام الذي ستقر عليه الأمة في توارث الخلافة بعد قيام دولتهم على يدي معاوية بن أبي سفيان!

وغادر وفد الخوارج، بسلاحهم، العاصمة إلى معسكرهم، في انتظار قرار الخليفة وبعد توديعهم، بعد المناظرة والاقتراب من أفكار الخليفة، الثقة بأن أهدافها واحدة، بل وكذلك السبل لتحقيق هذه الأهداف، وأن الخلافات قد أصبحت ضئيلة، بل وشكلية أحياناً، وأن شعور «السلام العام» هم هو أمر غير مستبعد ولا بعيد. وعندما ساهم

---

(١) (تاريخ الطبري) ج ٦ ص ٥٥٥، ٥٥٦.

البعض عما بقي بينهم وبين عمر من خلاف، فقال:

- ماذا تنقمون عليه؟.. - (كان جوابهم) -

- ما ننقم عليه إلا أنه لا يلعن من كان قبله من أهل بيته، وهذه مداهنة منه[1]!..

لكن الخوارج فوجئوا بجيش الدولة يهاجم معسكرهم قبل انقضاء الهدنة التي قررها الخليفة، فسألوا الوالي محمد بن جرير:

- ما أعجلك قبل انقضاء المدة فيما بيننا وبينكم؟!

فأجابهم:

- إنه لا يسعنا تركككم على هذه الحالة!.

فعجبوا.. ثم اتضح السبب، فبطل العجب.. ذلك أن أمراء بني أمية قد جزعوا عندما علموا أن عمر بن عبد العزيز قد قرر إعادة النظر في أمر من سيلي الخلافة من بعده، أي قرر العدول عن نظام التوارث في الخلافة، وجعل للرأي والمشورة مكاناً في هذا المقام، فنسوا أمرهم، ودسوا له السم في الشراب، فمات قبل انقضاء الأيام الثلاثة التي تواعد مع الخوارج بعدها على اصدار القرار!..

---

(١) (طبقات ابن سعد) ج ٥ ص ٢٦٤

ولقد أدرك الخوارج، بداهة واستباحاً، أن هجوم المباغت الذي شن عليهم، ما كان له أن يحدث لو أن عمر لا يزال حياً، فقالوا «ما فعل هؤلاء هذا إلا وقد مات الرجل الصالح»[1]

على هذا النحو سارت علاقة عمر بن عبد العزيز بالخوارج اثر الحوار بدلاً من الحرب وسعى لادخالهم في «السلام العام»، وكاد أن يفلح لولا أن أمراء بني أمية عجلوه فأنهوا حياته، وأنهوا معها مسعاه لتحقيق «سلام العام»!

ومع الهاشميين:

والهاشميون، هم الآخرون، كانوا ثواراً معارضاً لدولة الأموية منذ تأسيسها، بل منذ أن شق معاويه عصا الطاعة على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، ولقد بلغت معارضتهم هذه قبل خلافة عمر بن عبد العزيز، حد الثورة أحياناً، كما حدث عند ثورة التوابين بزعامة سليمان بن صرد (٢٨ ق هـ ٦٥ هـ ٥٩٥ ـ ٦٨٤ م) وعندما ثارت الكيسانية بزعامة المختار بن أبي عبيد بن مسعود الثقفي (١ ـ ٦٧ هـ ٦٢٢ ـ ٦٨٧ م)

ولقد جاء عمر بن عبد العزيز ليدخل، بالعدل والانصاف، تيار «هاشميين المعارض في اطار «السلام العام»

---

(١) (تاريخ الطبري) ج ٦ ص ٥٧٥، ٥٥٦، ٥٧٦

* ففي عهد الرسول، عليه الصلاة والسلام، كان النظام المقرر في مصارف الأموال يعطي الرسول سهماً وذوي قرابته سهماً. فلما توفي الرسول استقر الأمر على جعل هذين السهمين للدولة، تضعهما في أدوات الحرب - (الخيل والسلاح) - وكان للهاشميين، كغيرهم، عطاؤهم المقرر في الديوان. ولكن بني أمية حرموا بني هاشم عطاءهم، فعانوا، وخاصة المعارضين منهم، الفقر والمسغبة. فجاء عمر بن عبد العزيز ليرد على بني هاشم ما يستحقون، وليعوضهم عن بعض ما لاقوه في عهد خلفاء بني أمية السابقين. فلقد طلب إلى عامله على المدينة أن يقسم في أولاد علي بن أبي طالب، من فاطمة، عشرة آلاف دينار، وقال: «إنهم طالما تخطتهم حقوقهم»[1]!..

وهو قد رد إليهم ممتلكاتهم التي انتزعت من أيديهم[2].

وأمر بأن يعود سهم الرسول وسهم ذوي القربى فيقسم فيهم من جديد[3]..

وعندما اجتمع نفر من بني هاشم ليكتبوا إليه شاكرين عدله «وما فعله بهم من صلة أرحامهم بعد أن ظلوا محقبين منذ عهد

(١) (مروج الذهب) ج ٢ ص ١٤٤.
(٢) (تاريخ الدولة العربية) ص ٢٩٩
(٣) (الخراج) لأبي يوسف. ص ٢١.

معاوية» رد عليهم بأن هذا حقهم قد عاد إليهم. وأكثر من ذلك، فلقد أخبرهم بأن موقفه هذا هو رأي له قديم، ارتآه قبل أن يتولى الخلافة، وسعى إلى تطبيقه على عهد الخلفاء الذين سبقوه. قال هذا النفر من بني هاشم في جواب شكرهم له: «قد كان رأيي قبل اليوم هذا، ولقد كلمت فيه الوليد بن عبد الملك وسليمان فأبيا عليَّ، فلما وليت هذا الأمر تحريت به الذي أظنه أوفق إن شاء الله»[1]!

ولقد أتاح «السلام العام» الذي أعلنه عمر بن عبد العزيز، وإدخاله بني هاشم فيه، أتاح ذلك لفرعهم العباسي بدء التحرك السياسي، فبعد أن كان الخوف قد أقعدهم عن التحرك الإيجابي ضد بني أمية، بدأ العباسيون الدعوة إلى انتقال الخلافة «للرضا من آل البيت». ووجه محمد بن علي بن عبد الله بن العباس الدعاة يدعون إليه وإلى أن بيته في سنة ١٠٠ هـ على عهد عمر بن عبد العزيز[2]!

* وقبل عمر بن عبد العزيز كان خلفاء بني أمية قد سنوا سنة سيئة عندما قرروا على خطباء المنابر في المساجد أن يلعنوا علي بن أبي طالب، من فوق منابرهم، في كل خطاب يلقونه! وكان على الحضور، كي يسلموا، أن يؤمنوا - (يقوهم

---

(١) (طبقات ابن سعد) ج ٥ ص ٢٨٩.

(٢) (تاريخ الطبري) ج ٦ ص ٦٥٢

آمين) - على لعن الخطيب لرابع الخلفاء الراشدين؟! فلما جاء عهد عمر بن عبد العزيز أبطل هذه السنة السيئة، وطلب إلى الخطباء أن يصعدوا بخطبهم، في موضع الذي كانوا يلعنون فيه علياً الآية القرآنية التي تقول ﴿ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان، ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا، ربنا إنك رؤوف رحيم﴾[1]!

.هكذا أعلن عمر بن عبد العزيز مبدأ «السلام العام»، وسعى حتى دخلت فيه، مع جماهير دولته الثورى، مختلف فصائل المعارضة والإصلاح والثورة المعتزلة - أهل العدل والتوحيد - والخوارج والهاشميون. كما سوى، في الحقوق والواجبات، بين الموالي والعرب، وعالج، بعدله، مشكلات أهل الكتاب، ومن عنق منهم الإسلام حديثاً، فدخل الناس كافة في إطار هذا السلام العام..

ولقد استحق عمر بذلك مدح الشاعر الشيعي كثير عزه عندما خاطبه فقال:

وليت فلم تشتم علياً ولم تخف
بريئاً ولم تتبع مقالة مجرم
وقلت فصدقت الذي قلت بالذي
فعلت، فصحى راضياً كل مسلم[2]

---

(١) الحشر ١٠ (وانظر مروج الذهب ج ٢ ص ١٤٤)
(٢) (الأغاني) ج ٩ ص ٧٨، ٣٣

ثورة في جهاز الدولة

[كتب عمر بن عبد العزيز إلى أحد الولاة
«لقد كثر شاكوك، وقل شاكروك! فإما عدلت،
وإما اعتزلت!
والسلام..]؟!

لم يلجأ عمر بن عبد العزيز إلى جهاز الدولة الذي ورثه عن أسلافه، بعماله وولاته وقضاته، كي يحقق به ثورته الاجتماعية التي بذر نفسه لتحقيقها. ولقد أشرنا من قبل إلى شكواه التي بثها إلى ربه من عمال الدولة وولاتها الظلمة الذين تسلطوا على رقاب الأمة في الأقاليم والأمصار: «... الحجاج بالعراق، والوليد بالشام، وقرة بمصر، وعثمان بالمدينة، وخالد بمكة... اللهم قد امتلأت الدنيا ظلماً وجوراً، فأرح الناس!»[1].

فلما أن ولي هو الخلافة سعى، وعلى الفور، إلى راحة الناس! فلقد قرر ما يمكن أن تسميه بلغة عصرنا: هدم جهاز الدولة الظالمة القديم، وإقامة جهاز الدولة العادلة الجديد. فبدأ بأن عزل العمال والولاة الذين ولاهم من سبقه من الخلفاء، واختار بدلاً منهم «أصلح من قدر عليه» وأقرب

---

(١) (الكامل في التاريخ) ج ٤ ص ٢٢٢

من يستطيعون معه وضع العدل في موضع الحكم، «فسلك عماله طريقته»[1] كما يقول المؤرخون. وهو لم يتوان في اتخاذ قراره هذا، بل بدأه وهو على قبر الخليفة السابق سليمان بن عبد الملك، وقبر مواراه جثمانه التراب[2]!

ولقد استعان عمر بن عبد العزيز بأهل الرأي الصادق والصالحين من المشيرين في اختيار الولاة والعمال والعلماء، وسائر أركان جهاز الدولة الجديد. فقد كانت تصحب عيسه الحقيقة القائلة: إنه بدون الأعوان الخيرين لا يمكن أن يتحقق خير، ولمعه عصرنا: لا ثورة بدون ثوار! وقد دارت حول هذه الحقيقة مكالمات بين عمر بن عبد العزيز وبين طاوس بن كيسان (٣٣ - ١٠٦ هـ ٦٥٣ - ٧٢٤ م) عندما استشاره عمر في هذا الأمر، فقال له: «إن أردت أن يكون عملك حيراً كله، فاستعمل أهل الخير»! وقد عبر عمر عن عميق اقتناعه بهذه الحقيقة عندما عقب عليها قائلاً: «كلمة يا طاوس موعظة»!..[3]

وهو قد استشار، في اختيار جهاز دولته الجديد، ميمون بن مهران، فقال:

---

(١) (مروج الذهب) ج ٢ ص ١٤٤

(٢) (الوزراء والكتاب) ص ٥٢

(٣) (مروج الذهب) ج ٢ ص ١٤٤

يا ميمون، كيف لي بأعوان على هذا الأمر أثق بهم وآمنهم؟!... - (فأجابه):

- يا أمير المؤمنين، لا تشغل قلبك بهذا، فإنك سوق، وإنما يحمل إلى كل سوق ما ينفق فيه، فإذا عرف الناس أنه لا ينفق عندك إلا الصحيح لم يأتوك إلا بالصحيح»[1]

ورغم صدق مقولة ميمون بن مهران هذه، إلا أن قلب عمر وعقله ظلا مشغولين بهذا الأمر العظيم، أمر اختيار الرجال الصالحين للعمل الصالح الذي نهض به هذا الخليفة الصالح فهو عندما أراد أن يختار خراسان والياً طلب مشيراً صالحاً يستشيره فيمن يوليه فأتوه بواحد من القراء الصالحين الثقاة الثوار هو أبو محلز لاحق بن حميد، فعرض عليه عمر أسماء اثنين من المرشحين للولاية، وطلب منه الموازنة للاختيار. سأله عن: عبد الرحمن بن عبد الله القشيري؟ فقال عنه أبو محلز: «إنه يكافئ الأكفاء، ويعادي الأعداء وهو أمير يفعل ما يشاء، ويقدم إن وجد ما يساعده»! ثم سأله عن: عبد الرحمن بن نعيم؟ فقال: «إنه ضعيف لين، يحب العافية، ويأبى إليه»! وكان عمر يدرك أن الناس، بعد سنوات من التجبر والقهر، هم أحوج ما يكونون إلى ولاة

---

(١) (طبقات ابن سعد) ج ٥ ص ٢٩١

يحبون العافية، وبابهم مفتوح لشكاوي المظلومين. فاختار عبد الرحمن بن نعيم، قائلاً «الذي يحب العافية ويأبى إنه أحب إلي»[1]!..

وقد سبق وأشرنا إلى استعانة عمر بعيلان الدمشقي وثوار المعتزلة ومختلف فصائل المعارضة بني أمية، وكيف انعكس «السلام العام» وانعكست ثمراته على تكوين جهاز دولته الجديد..

هكذا صنع عمر بن عبد العزيز مع جهاز الدولة. هدم بنيته القديمة الظالمة. واستبدل بها بنية جديدة عادلة، أو أقرب ما يكون إلى العدل الذي استهدف تحقيقه بين الناس. فكان عامله وواليه.

* على المدينة: أبو بكر محمد بن حزم. وقاضيها: أبو طوالة..

* وعلى الكوفة: عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب. وكاتب الحرب والخراج فيها: أبو الزناد. وقاضيها: عامر الشعبي.

* وعلى البصرة: عدي بن أرطأة. وقاضيها ـ لبعض الوقت ـ الحسن البصري..

---

(١) (تاريخ الطبري) ج ٦ ص ٥٦١.

* وعلى مصر: عروة بن محمد بن عطية السعدي

* وعلى الجزيرة: عدي بن عدي الكندي.

* وعلى أفريقيه: إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر

* وعلى دمشق: محمد بن سويد المهري - (وهو من المعتزلة)..

* وعلى خراسان: الحرث بن عبد الله الحكمي

* وعلى سمرقند: سليمان بن السري..

ولم يكتف عمر بهذا التغيير، كي لم يقف بمسؤوليته عند حدود إصدار المواعظ أو الأوامر والنواهي، بل كان دائم المراقبة والتفتيش على هؤلاء الولاة والعمال. فهو يكتب إلى أحد عماله، محذراً متوعداً، فيقول: «لقد كثر شاكوك، وقل شاكروك! فإما عدلت، وإما اعتزلت! والسلام»[1]

وهو قد طلب إلى الناس أن يستقر كل في بلده وموطن عمله، بدلاً من العاصمة، ولكنه أعفى أن سبيل المظلوم إلى مترل الخليفة ومجلسه يجب أن يفتح، بل ومهد، حتى لقد أعفى المظلوم من طلب الإذن في الدخول على أمير المؤمنين!

(١) (مروج الذهب) ج ٢ ص ١٤٥

فقال: «ومن ظلمه عامله فليس عليه مني إذن، فليأتني»[1]!..

وكان دائم الموالاة على إرسال الثقاة يستكشفون أحوال الرعية ويلتقطون أخبار الولاة والعمال. بعث إلى خراسان بشر بن صفوان، وعبد الله بن عجلان، وخالد بن سالم «ينظرون ظلامات الناس من نظام خراجها» عندما اشتكوا من النظام الذي قرره عدي بن أرطأة[2]. وطلب إلى رياح بن عبيدة أن يأتيه بأخبار الناس والولاة في العراق، وقال له:

- حاجتي إليك أن تسأل عن أهل العراق، وكيف سيرة الولاة فيهم، ورضاهم عنهم؟

فلما عاد إليه رياح بن عبيدة وأخبره «بحسن سيرتهم في العراق وثناء الناس عليهم».. قال:

الحمد لله على ذلك. لو أخبرتني عنهم بغير هذا عزلتهم، ولم أستعن بهم بعدها أبدا. إن الراعي مسؤول عن رعيته، فلا بد أن يتعهد رعيته بكل ما ينفعهم الله به ويقربه إليه، فإن من ابتلي بالرعية فقد ابتلي بأمر عظيم[3]!

---

(١) (طبقات ابن سعد) ج ٥ ص ٢٥٣.

(٢) المصدر السابق، ج ٥ ص ٢٩٠

(٣) (الخراج) لأبي يوسف. ص ١١٩

ولقد رأينا كيف عزل عمر، عن خراسان، يزيد بن المهلب، وأدخله رغم عصبيته، السجن، بل وهم بنفيه إلى جزيرة «دهلك» في البحر الأحمر، قرب الساحل الأفريقي، لولا أنه خاف اختطاف عصبيته له وهو في الطريق إلى المنفى. ولقد قال عنه وعنهم: «هؤلاء جبابرة، ولا أحب مثلهم»[1]!

هكذا صنع الخليفة العادل الصالح مع جهاز الدولة فحتى يزيل ظلم الدولة أزال جهازها الظالم. وحتى يزرع في دولته العدل أقام لها جهازاً يتحرى العدل قدر الإمكان. وبعبارة المسعودي: «لقد صرف عمر بن عبد العزيز عمال من كان قبله من بني أمية، واستعمل أصلح ما قدر عليه، فسلك عماله طريقته»[2]!

ولقد كان ذلك ضرورياً. فالناس على دين ملوكهم. كما قال القدماء.. وكما يقول المحدثون؟!

---

(١) (تاريخ الطبري) ج ٦ ص ٥٥٦، ٥٥٧

(٢) (مروج الذهب) ج ٢ ص ١٤٤

رد المظالم.. أو: الثورة الاجتماعية

[إن أهلي أقطعوني ما لم يكن لي أن أخذه، ولا لهم أن يعطوني!
وثروة الأمة: غير أعظم، والناس شركاء فيه سواء!..]

عمر بن عبد العزيز

لقد أوجز القدماء وصف مضمون الثورة الاجتماعية التي فجرها عمر بن عبد العزيز في كلمتين اثنتين هما «رد المظالم» وكانوا مصيبين الاصابة كلها، ففي هاتين الكلمتين الوصف الموجز والتحديد الدقيق

ورد المظالم، أو الثورة الاجتماعية قد تمثلت في فجر عمر ابن عبد العزيز هذه في عملين، هما في الواقع عمل واحد متكامل فهو قد انتزع الأرض والمال والثروة، وكل المقتنيات، التي كانت في صدر الاسلام ملكاً لبيت مال المسلمين، أي للأمة، وكانت تمثل الثروة الأساسية للمجتمع والأمة، انتزعها من حيازة الذين حازوها واختاروها وملكوها، وردها مرة أخرى إلى بيت مال المسلمين، كي تعود مرة أخرى ملكاً للأمة جمعاء وخلال هذه العملية الثورية الكبرى عالج المظالم الفردية فأخضعها لنفس القانون

وحتى تدرك عظم هذه العملية الثورية وشمولها، ومن ثم

عظم الثورة الاجتماعية التي انجزها عمر بن عبد العزيز وعمقها، علينا أن نتذكر.

* إن الإسلام قد حدد أن المال في المجتمع هو مال الله، وأن الناس، بحق الخلافة في الأرض عن الله، هم خلفاء في هذا المال، وليسوا ملاكه ﴿وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه﴾[1] ﴿وآتوهم من مال الله الذي آتاكم﴾[2]. فالأرض، وما فيها وما عليها قد جعلها الله للبشر أجمعين ﴿والأرض وضعها للأنام﴾[3]، وهم يستثمرونها بالعمل، ويدل كل عامل فيها ثمرة سعيه هو ﴿وان ليس للانسان إلا ما سعى﴾[4].

وقد حددت السنة النبوية، وهي تشرع للمجتمع الاسلامي الأول، أن المصادر الأساسية والعامة للثروة في المجتمع إنما هي «شركة مشتركة» بين الكافة من الناس، فقال الرسول، عليه الصلاة والسلام «المسلمون شركاء في ثلاث الماء، والكلأ، والنار، وثمنه حرام»[5]. كما حددت هذه السنة أن ليس للانسان إلا ما يكفل له العيش الكريم الضامن

---

(١) الحديد: ٧

(٢) النور: ٣٣

(٣) الرحمن: ١٠.

(٤) النجم: ٣٩.

(٥) رواه ابن ماجة وابن حنبل.

لتوفير الاحتياجات، وأن ما زاد على احتياجات الإنسان وفضل عنها فهو «فضول» (زيادة) - لا حق للإنسان في اختيارها، فضلاً عن إدعاء امتلاكها والحرية في التصرف بها - فـ«من كان عنده فضل من ظهر - (دابة) فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان عنده فضل من زاد فليعد به على من لا زاد له» وراوي الحديث، وهو الصحابي أبو سعيد الخدري، يكمل الرواية فيقول: إن الرسول ﷺ، قد «ذكر من أصناف المال ما ذكر، حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا في فضل»[1]. وفي حديث آخر يحدد الرسول ماذا للحائز في المال؟ فيقول: «يقول ابن آدم: مالي! مالي! وإنما مالك ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت»[2].

وأما ما زاد عن الاحتياجات، التي تتحدد بالعرف ودرجة الرخاء للأمة، فهو «الفضل - الزيادة - العفو»، وهو داخل في إطار ما يجب إنفاقه حيث الحاجة إليه قائمة، بنص الآية القرآنية التي تقول: ﴿يسألونك ماذا ينفقون؟ قل: العفو، كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون﴾[3]. وجمهرة المفسرين، ومنهم ابن عباس (٣ق هـ - ٦٨ هـ ٦١٩ - ٦٨٧ م) والحسن البصري (٢١ - ١١٠ هـ ٦٤٢ - ٧٢٨ م)

(١) رواه مسلم وابن حنبل

(٢) رواه النسائي

(٣) البقرة ٢١٩

وقتادة بن دعامة السدوسي (٦١ - ١١٨ هـ ٦٨٠ - ٧٣٦ م) وعطاء بن دينار (١٢٦ هـ ٧٤٤ م) والسدي، إسماعيل بن عبد الرحمن (١٢٨ هـ ٧٤٥ م) والقرطبي محمد بن كعب، وابن أبي ليلى، محمد بن عبد الرحمن (٧٤ - ١٤٨ هـ ٦٩٣ - ٧٦٥ م) الخ الخ جمهور المفسرين على أن (العفو) الواجب إنفاقه «هو ما فضل عن العيال، فالمعنى أنفقوا ما فضل عن حوائجكم»[1] ..

ذلك هو موقف الإسلام من ثروة المجتمع

* وعندما فتح المسلمون، على عهد عمر بن الخطاب، المجتمعات الزراعية والغنية، ذات الثروة والحضارة، لم يخضعوا فكرهم الاجتماعي والمتقدم لما كان لهذه المجتمعات من فلسفات إجتماعية طبقية واستغلالية - في فرس الأكاسرة وشام القياصرة، ومصر الاستعمار البيزنطي. وإنما طوع عمر بن الخطاب نظام تلك المجتمعات، ومن ثم نظام الدولة الاجتماعي بأكمله، للفكر الإسلامي الاجتماعي المتقدم، وذلك عندما استقر الأمر على جعل ملكية رقبة الأرض في أحواض أنهار تلك البلاد بأكملها لبيت مال المسلمين، أي للأمة جمعاء، أحيائها الحالية والمستقبلة. ولقد قال عمر بن الخطاب، يومها، تزكية هذا الاتجاه ضد الاتجاه الذي رأى

---

(١) القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) ج ٣ ص ٦٢ طبعة دار الكتب المصرية

أصحابه توزيع أربعة أخماس هذه الأرض، بمن فيها من الفلاحين، على الجند الفاتحين لهذه البلاد، ملكاً خاصاً لهم! قال عمر: «ما هذا برأي، ولست أرى ذلك. فإذا قسمت هذه الأرض فما يسد به الثغور، وما يكون للذرية والأرامل. لقد أشرك الله الذين يأتون من بعدكم في هذا الفيء، فلو قسمته لم يبق لمن بعدكم شيء». فأصبحت هذه الأرض، وهي الثروة الأساسية للدولة، ملكاً جماعياً لمجموع الأمة، في حاضرها ومستقبلها. وبعبارة أبي عبيد القاسم بن سلام: «فيئاً موقوفاً للمسلمين ما تناسلوا، يرثه قرن عن قرن (أي جيل عن جيل)[1]».

* لكن هذا الذي استقر عليه الإسلام، والمسلمون حتى عهد عمر قد بدأ يتغير منذ خلافة عثمان بن عفان. فأشراف قريش الذين حجرهم عمر بالمدينة، ومنعهم من السعي لجبارة الثروات، وامتلاك الأرض في البلاد الغنية المفتوحة، قد انطلقوا وحققوا مطامحهم ومطامعهم على عهد عثمان. وكما يقول الطبري: فإن عمر كان «قد حجر على أعلام قريش، من المهاجرين الخروج من البلدان إلا بإذن وأجل. فلما ولي عثمان لم يأخذهم بالذي كان عمر يأخذهم به، فخرجوا إلى

(١) (الأموال) لأبي عبيد ص ٥٧ - ٥٨، طبعة القاهرة سنة ١٣٥٣ هـ
و(الخراج) لأبي يوسف ص ٢٣ - ٢٧، ٣٥

لبلاد، فما نزلوها ورأو الدنيا؟! وراهم الناس فانقطع إليهم الناس، وتقربوا إليهم، وقالوا: يمكون فيكون لنا في ملكهم حظوة؟ فكان ذلك أول وهن على الإسلام، وأول فتنة كانت في العامة! ولذلك كان عثمان أحب إلى قريش من عمر»[1]!..

وملأ قريش، هؤلاء الذين بدأت تتغير مصلحتهم فسعه المجتمع الذي هم فيه في مقدمتهم، بل كانوا معظمهم، فكما يقول ابن خلدون «إن عصبية مضر كانت في قريش، وعصبية قريش في عبد مناف، وعصبية عبد مناف إنما كانت في بني أمية»[2]!

والأرض التي استصفاها المسلمون عند الفتح، والتي كانت ملكاً لكسرى وأمرائه وقواده وحكومته، أصبحت في عهد عمر ملكاً للأمة. وسميت الصوافي. ولكن في عهد عثمان بن عفان بدأ اقطاع هذه الأرض للأفراد[3]. ومثل ذلك حدث

(١) ابن أبي الحديد (شرح نهج البلاغة) ج ١١ ص ١٢، ١٣، طبعة القاهرة سنة ١٩٥٩ م

(٢) (المقدمة) ص ١٧١ - طبعة القاهرة سنة ١٣٢٢ هـ

(٣) يحيى بن آدم (الخراج) ص ٧٩ طبعة سنة ١٣٤٧ هـ و (الخراج) لأبي يوسف ص ٦٢.

لأرض العراق، فلقد كانت ملكاً عاماً للأمة وبيت مالها حتى كان عهد عثمان فبدأ بقطعها هي الأخرى[1]!.. واستمر نمو حجم الخيارات الخاصة والاقطاعات في الأرض على حساب ملكية العامة لها حتى كان عهد الحجاج بن يوسف، عندما احترقت سجلات الديوان، سنة ٨٢ هـ في موقعة دير الجماجم، أثناء قتال الدولة للثوار، فضاعت الوثائق التي تجعل ملكية هذه الأرض - كتابة - لبيت المال، بعد أن ضاعت هذه الملكية العامة في الواقع العملي! وعند ذلك - كما يقول الماوردي «أخذ كل قوم ما يليهم[2]! واستأثروا به دون بيت المال وعامة المسلمين..

ولقد انعكست هذه التغيرات التي حدثت في فلسفة المجتمع المالية على التفاوت الاجتماعي والمالي الذي أخذ يتضح بين الخاصة وبين العامة[3] بل واستقرت هذه الأمور المحدثة عامة المسلمين إلى الثورة التي انهت عهد عثمان بن عفان وجاءت بعلي بن أبي طالب إلى الخلافة كي يرد المظالم ويغير ما أحدثه عثمان من أحداث[4] ولقد حاول علي بن أبي طالب

(١) البلاذري (فتوح البلدان) ص ٢٨٢ طبعة القاهرة سنة ١٣١٩ هـ
(٢) (الأحكام السلطانية) ص ١٩٣ طبعة القاهرة سنة ١٩٧٣ م
(٣) أنظر (مروج الذهب) ج ٢ ص ٣٤١ - ٣٤٣، ٣٤٩
(٤) د. محمد عمارة (الفكر الاجتماعي لعلي بن أبي طالب) ص ٢٩ - ٤٧، طبعة القاهرة سنة ١٩٧٧ م

ذلك، ولكن بني أمية ومن شايعهم كانوا له ولثورته بالمرصاد ثم بدأت الأحداث حتى انتهت بالبيعة لمعاوية بن أبي سفيان، فكانت بداية الأموية هي الامتداد لعهد عثمان بن عفان وكانت، من ثم، سياستها وفلسفتها الاجتماعية تطوراً نحو الأسوأ، ونمو في اتجاه سيادة قواعد الاجتماعي الطبقي الاستغلالي الذي ثار عليه المسلمون في عهد عثمان، وحاولوا تغييره بقيادة علي بن أبي طالب، ثم استمرت شكواهم منه، وتناقضاتهم ضده تحت حكم الأمويين[1].

لقد انتقلت، على عهد عثمان، أجزاء من ثروة الأمة بصفة إلى حيازة الأفراد، وسماها الناس «مظالم»، وكان مصيرها عندما ثاروا على عثمان رد المظالم أو اعتزال الخلافة. وعلى عهد بني أمية، وعندما وصل منصب الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز كان جزء الأكبر من ثروة الأمة قد انتقل إلى حيازة الأفراد، بل وملكيتهم. فكانت تلك هي المظالم التي تمثلت في ردها إلى أصحابها الثورة الاجتماعية لعمر بن عبد العزيز فهي تعني ذلك التغيير الاجتماعي الجذري العميق، الذي ينتزع ثروة المجتمع من أولئك الذين اختاروها وتوارثوها، منذ عهد عثمان وحتى عهد سليمان بن عبد الملك، وردها

---

(١) د. محمد عمارة (الإسلام والثورة)

ثابتة إلى ملكية الأمة عامة، ومعالجة المظالم الفردية التي حدثت خلال هذا الظلم العام!.

وقد أصاب المؤرخون كبد الحقيقة عندما قالوا إن هذه الثورة الاجتماعية - (رد المظالم) - كانت هي المهمة الأولى والأساسية والكبرى لخلافة الخليفة عمر بن عبد العزيز. فلقد قالوا: «إنه ما زال يرد المظالم منذ يوم استخلف إلى يوم مات»[1]. أي أن ثورته وثورتيه لم تعرف الفتور يوماً، ولم يصبها الانحراف عن طريقها القويم.

ولقد بدأ بنفسه:

وعمر بن عبد العزيز، قبل أن يلي الخلافة ويعلن ثورته الاجتماعية ويبدأ ملحمته برد المظالم، كان أميراً من أمراء البيت الأموي الحاكم، ورغم صلاحه ونزوعه إلى العدل فإنه كان يحيا حياة من اعتدت أخلاقه من الأمراء. صالح هو نعم. ولكنه يتمتع ويستمتع بما تتيحه الإمارة لأمثاله من يسر ونعيم!..

لقد كان من أكثر الناس اهتماماً بملبسه «يشتري الحلة بألف دينار، فإذا لبسها استخشنها ولم يستحسنها»[2]، ويشتري

(١) (طبقات ابن سعد) ج ٥ ص ٢٥١

(٢) (مروج الذهب) ج ٢ ص ١٤٥، ١٤٦.

القميص بأربعمائة دينار، فإذا لمسه بيده «قال: ما أخشنه وأغلظه!» ويهتم بعطره وعطر ثيابه، حتى لقد كان من «أعطر قريش» كما قال مخالطوه[1]! وحتى أن أتربه كانوا يدفعون لمن يتولون غسل الثياب مالاً أكثر حتى يغسلوا ثيابهم بعد ثيابه مباشرة كي ينال منها عطراً!

ولقد كانت مظاهر النعمة والرفاهية بادية عليه: سمنة تجعل حزام إزاره - (حجرة إزاره) تغوص بين تلافيف جسمه - (تغيب في عكنه!) - وإذا مشى خطر بيديه في خيلاء تميز بها عن كثير من الأقران![2]..

وكانت له، كغيره من الأمراء، أموال واقطاعات، وجواهر للزينة والاقتناء!

لقد كان أميراً منعماً في بيت مالك استبد خلفاؤه وأمراؤه بطبقات امبراطورية امتدت حدودها من البرتغال حتى الصين!..

فلما أن ولي عمر الخلافة، وأعلن ثورته لرد المظالم كانت ذاته وحياته أول ميدان يطبق فيه وينفذ به فكره الثوري. لقد أعلن ثورته منذ اللحظة الأولى لتوليه الخلافة، وعرفت مبادىء

---

(١) (طبقات ابن سعد) ج ٥ ص ٢٤٦.

(٢) المصدر السابق ج ٥ ص ٢٧٥، ٢٨٥، ٢٨٦، ٢٩٧ و (خراج) لأبي يوسف ص ١٧

ثورته سبيلها إلى التطبيق أول ما عرفت عليه هو، وقبل أي أحد سواه. وبعبارة القدماء: «قول عمر بن عبد العزيز لما رد المظالم قال: انه لينبغي أن لا أبدأ بأول من نفسي!»

* فقد كان لديه متاع كثير، تنازل عنه ورده إلى بيت المال. وكان من بينه «فص خاتم» جاء من أرض المغرب وأعطاه له الخليفة الوليد بن عبد الملك[1]!..

* وكان يملك عبيداً وثياباً وعطوراً ومقتنيات تزيد عن حاجة الثائر الزاهد، الذي أصبحه، فجمعها، وأمر بها فبيعت بثلاثة وعشرين ألف دينار، أودعها بيت المال لتنفق على أبناء السبيل[2]!

* وكانت لديه جواري للخدمة والاستمتاع، فلما ولي الخلافة سمع خاصته في منزله بكاء عالياً، فلما استفسروا عن مصدر البكاء وسببه علموا أن عمر قد خير جواريه، قائلاً هن: قد نزل بنا أمر قد شغلنا عنكن، فمن أحب أن أعتقه أعتقته، ومن أمسكته لم يكن مني إليه شيء؟[3]» فهو قد حرم على نفسه الاستمتاع بالجواري.

* وكانت مزرعة «فدك» بالقرب من المدينة قد آلت إليه،

---

(١) المصدر السابق ج ٥ ص ٢٥٢

(٢) المصدر السابق ج ٥ ص ٢٥٤

(٣) المصدر السابق، ج ٥ ص ٢٩٣

وهي التي كانت زمن البعثة في مخصصات الرسول، عليه الصلاة والسلام، ثم أصبحت على عهد الراشدين لبيت مال المسلمين، فلما كان عهد معاوية أقطعها لمروان بن الحكم، ثم وهبها مروان لولديه: عبد العزيز وعبد الملك، ثم صارت لعمر والوليد وسليمان، حتى استخلصها عمر لنفسه. فلما ولي عمر الخلافة، وأعلن ثورته، وبدأها بنفسه، أعاد «فدك» إلى ما كانت عليه زمن الرسول عليه الصلاة والسلام، وقال، في ذلك، لمولاه «مزاحم»: «إن أهلي أقطعوني ما لم يكن لي أن آخذه، ولا لهم أن يعطونيه[1]!»

ولقد اكتفى عمر، من المال والمتاع، بما يسد احتياجاته الضرورية، كحاكم مسلم ثائر، يضرب المثل للأمة كي تقتدي به في الثورة التي استهدف تحقيقها.

فلقد أصبح ثمن حلته عشرة دراهم بعد أن كانت بألف دينار؟؟ ومع ذلك كان إذا لبسها استلابها[2].

وكانت له بغلة، أرسلها إلى الرعي، بعد أن عجز عن علفها، ثم باعها[3]!..

---

(١) (فتوح البلدان) ص ٢٩ و (الكامل في التاريخ) ج ٥ ص ٢٤

(٢) (مروج الذهب) ج ٢ ص ١٤٦

(٣) (طبقات ابن سعد) ج ٥ ص ٢٨٢

وقنع بالكفاف، وامتنع عن أخذ شيء من بيت مال المسلمين[1].. ولما قيل له:

لو أخذت من بيت المال ما كان يأخذ عمر بن الخطاب؟... (قال):

- إن عمر لم يكن له مال، وأن مالي يعنيني[2]!»

ونهى عماله عن أن يقدموا إليه كما كان الحال مع من سبقه - الهدايا في أعياد «النيروز» و«المهرجان»[3] وقد اشتهى التفاح يوماً، فعجز عن شرائه، فلما أهدي إليه رفضه، فسأله «فرات بن مسلم»:

- يا أمير المؤمنين، اشتهيت التفاح فلم يجدوه لك، فأهدي إليك فرددته؟!..

- لا حاجة لي فيه!..

- لم يكن رسول الله، ﷺ، وأبو بكر وعمر يقبلون الهدية؟!

إنها لأولئك هدية، وهي للعمال بعدهم رشوة؟![4]

---

(١) المصدر السابق ج ٥ ص ٢٩٦.

(٢) ابن عبد ربه (العقد الفريد) ج ٣ ص ١٦٩ طبعة القاهرة سنة ١٩٢٨ م

(٣) (طبقات ابن سعد) ج ٥ ص ٢٧٦

(٤) المصدر السابق. ج ٥ ص ٢٧٨

ولما سأله البعض:

- يا أمير المؤمنين، إن الله يقول في كتابه ﴿كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾[1]! (كان جوابه)

- هيهات! ذهبت به إلى غير مذهبه، إنما يريد طيب الكسب ولا يريد به طيب الطعام[2]!

وهو قد حال بين نفقاته الخاصة وبين ما هو ملك لبيت المال وعامة المسلمين، حتى لقد «أمر ألا يسخن ماؤه الذي يتوضأ به ويغتسل في مطبخ العامة!»[3]..

وكان يمتنع عن الجلوس على الوسائد العامة المملوكة للدولة إذا كان في مجلس خاص به، وكذلك شموع الدولة وسرجها لا يوقدها في مجالسه الخاصة، وأجبره في الحفاظ على أموال المسلمين العامة، والاقتصاد في النفقات يصل إلى درجة الأساطير![4]..

بل لقد بلغ به الفناء في المبدأ العام والإخلاص للمجموع إلى الحد الذي نهى الناس فيه عن أن يفردوه ويخصوه بشيء

---

(١) البقرة: ٥٧، ١٧٢، والأعراف: ١٦٠، وطه: ٨١

(٢) (طبقات ابن سعد) ج ٥ ص ٢٧٠.

(٣) المصدر السابق. ج ٥ ص ٢٨٤

(٤) المصدر السابق. ج ٥ ص ٢٧٨.

من الدعاء، وقال لهم: «ادعوا للمؤمنين والمؤمنات عامة، فإن أكن منهم أدخل فيهم!»[1].

وعندما أصبح عيشه خشناً بعد أن كان ليناً، وثيابه غليظة بعد أن كانت ناعمة، وجسمه نحيلاً، حتى ليستطيع الرائي أن يعد أضلاعه دون لمسها بعد أن كان سميناً، وغدا يمشي مشية الرهبان بعد الخيلاء، وحدثه البعض فيما أحدثته ثورته بنفسه من انقلاب جذري وعام، قائلاً له:

- يا أمير المؤمنين، غيرت كل شيء حتى مشيتك! (أجابه).

- والله ما رأيتها كانت إلا جنوناً[2]!..

لقد أمعن في التقشف والزهد، ضارباً لأمته المثل والقدوة، وقبل أن يعالج بالعدل والثورة حياة الأمة العامة عالج بهما حياته الخاصة، وقبل أن يرد مظالم الآخرين إلى أصحابها رد ما لديه هو من المظالم إلى بيت مال المسلمين، وكما قال لمولاه «مزاحم»: «إن أهلي أقطعوني ما لم يكن لي أن آخذه، ولا لهم أن يعطونيه!»..

---

(١) المصدر السابق: ج ٥ ص ٢٥٦، ٢٧٢، ٢٩٥، ٢٩٦.

(٢) المصدر السابق: ج ٥ ص ٢٧٥ و(الخراج) لأبي يوسف: ص ١٧.

هكذا كانت حياة عمر بن عبد العزيز نقطة البدء في الثورة الاجتماعية التي أعلنها عمر بن عبد العزيز!

وبزوجه وأولاده:

وقبل أن تمتد يد عمر بالعدل والثورة ورد المظالم إلى أمراء بني أمية وأشراف الدولة وسراتها، امتدت إلى زوجته فاطمة بنت عبد الملك، فطلب إليها أن ترد ما حازت من ثروة إلى بيت مال المسلمين، حتى ما كانت تتزين به من حليّ وجوهر طلب منها أن تتجرد منه وترده إلى بيت المال، ولقد دار بينه وبينها، حوله، هذا الحوار.. سألها:

- من أين صار هذا الجوهر والمال والحليّ إليك؟

- أعطانيه أمير المؤمنين، أبي، عبد الملك

- إن أردت صحبتي فردي ما معك من مال وحليّ وجوهر إلى بيت مال المسلمين، فإنه لهم. وإما أن تردّيه إلى بيت المال وإما أن تأذنيني في فراقك، فإني أكره أن أكون أنا وأنت وهو في بيت!

- لا، بل اختارك على أضعافه لو كان لي!

فوضعت فاطمة بنت عبد الملك ما كانت تحاز من مال وجوهر وحليّ ببيت مال المسلمين، «لأنه لهم»، وهي لم تنله إلا كمظالم أقطعها لها من المال العام أبوها عبد الملك بن مروان!..

وكما حرم عمر على نفسه أن تتجاوز طعامها إلى طعام العامة، كذلك طلب إلى أهله الامتناع عن إدخال طعام العامة في طعامهن الخاص. وكان قد أقام «دار طعام» للفقراء والمساكين وأبناء السبيل، وقال لأهله: «إياكم أن تصيبوا من هذه الدار شيئاً من طعامها، فإنما هو للفقراء والمساكين وابن السبيل». وكانت له زوجة حامل، تاقت نفسها إلى قليل من اللبن، وخافت وقفاً للاعتقاد السائد: إن هي حرمت منه أن يسقط جنينها، فجاءتها خادمتها «بعرقة لبن» من دار طعام الفقراء، فأبصرها عمر بن عبد العزيز، فاشتد غضبه، ومنع زوجته من تناوله، وقال لها غاضباً معنفاً: «إن لم تمسك ما في بطنك إلا طعام المساكين والفقراء فلا أمسكه الله!»[1].

وكذلك فعل عمر بأولاده. فلقد أصابهم زهده وتقشفه، وكان رده لما جاز من مظالم يعني أن يتركهم من بعده فقراء، رغم أنهم أبناء أمير المؤمنين! وعندما حضرته الوفاة جمعهم من حوله، ورق لحالهم، وقال:

- بأبي وأمي من خلفتهم بعدي فقراء!

وكان بمجلسه هذا مسلمة بن عبد الملك، فطلب إليه أن يكتب لأولاده مالاً يبذلهم بالفقر عني، وقال:

---

(١) المصدر السابق ج ٥ ص ٢٩٠، ٢٩١، ٢٧٩ و(الكامل في التاريخ) ج ٥ ص ١٦.

- يا أمير المؤمنين، تعقب فعلك - (أي غير ما صنعت من قبل) - واعنهم! فما يمنعك أحد في حياتك، لا يرتجعه الوالي بعدك! .

فتعجب عمر من قول مسلمة، وقال:

- يا مسلمة، منعتهم إياه في حياتي وأشقى به بعد وفاتي[1]؟! . .

ورفض العودة عن الحق، حتى وإن عاش أبناء أمير المؤمنين من بعده فقراء! . .

وبالأمراء والأميرات من بني أمية:

حق ما تقرره السنة النبوية والمأثورات الإسلامية من أن خطر جهاد النفس هو أعظم وأكبر من جهاد الآخرين فـ «المجاهد من جاهد نفسه لله»[2]، وجهاد النفس هو الأكبر إذا ما قيس بالحرب والقتال! . .

لكن صلاح عمر بن عبد العزيز وتقواه قد جعلت من جهاده ضد الآخرين، وخاصة أمراء بني أمية، المعركة الكبرى والشاقة والشرسة، على حين كان جهاده ضد نفسه وإن بنته، برد المظالم التي اختارها مع زوجته، جهاداً أصغر، قبلت به

---

(١) (الأغاني) ج ٩ ص ٣٣٨٤، ٣٣٨٥

(٢) رواه الترمذي وابن حنبل.

عن سعادة ورضا نفس العالية والمطمئنة لهذا الخليفة الصالح والعظيم..

لقد كانت المعركة الشرسة هي معركته ضد بني أمية، وكان قراره برد المظالم التي اختاروها أول الخراجات وأخطرها في ثورته الاجتماعية الكبرى. فعمر بن عبد العزيز هو الخليفة الثامن في سلسلة خلفاء الدولة الأموية وهو قد تولى الخلافة بعد أكثر من نصف قرن من بدء حكم هذه الدولة للعرب والمسلمين، فعندما ينهض، من خلال السلطة وبها، لانجاز ثورة إجتماعية تستهدف إحداث تغييرات جذرية في أنظمة اقتصادية واجتماعية استقرت لأكثر من نصف قرن، فبديهي أن تعترض طريقه المصاعب والعقبات، وهو عندما يريد أن يعيد إلى بيت مال المسلمين مظالم وحقوقاً اغتصبت منه، ثم امتلكت، ثم خضعت للميراث والتصرفات المالية المختلفة والمتوالية، فطبيعي أن تجابه محاولاته تلك بالكثير من المعارضات، وأخيراً، فهو عندما يريد أن ينزع هذه الثروات من أيدي «أمراء» هم ما للأمراء من الشوكة والجاه والأعوان والنفوذ، فإن المجابهة لا بد وأن تكون حامية الوطيس.

ومع كل ذلك فلم يتردد، ولم يتوان عمر بن عبد العزيز. فلقد بدأ بعمل منصع الثورة في حسم الكيان المالي لبني أمية بادئاً من أعمق الأعماق، من نقطة البدء التي حدث فيها الانحراف عن نهج الاسلام الاجتماعي والحيازة الجماعي

جموع الأمة في الأموال والثروات. وبعبارة القدماء فلقد أخذ عمر «يرد المظالم من لدن معاوية إلى أن استخلف، فأخرج من أيدي ورثة معاوية ويزيد ابن معاوية حقوقاً! ردها جميعاً إلى بيت المال» بل وأخرج من هذه الأموال ركائبها في تلك السنوات!..[1]

ولم يقف عمر، مع أمراء بني أمية، عند حد انتزاع ما بأيديهم من «القطائع» والأموال والثروات والمقتنيات، بل ومنع عنهم ما كان الخلفاء السابقون قد أغدقوه عليهم من الرواتب والمخصصات. وبعبارة القدماء فإنه «منع قرابته ما كان يجري عليهم، وأخذ منهم القطائع التي كانت بأيديهم» وردها جميعاً لبيت مال المسلمين. وقال لمن أبلغه شكواهم ومعارضتهم: «ما منعتهم حقاً أو شيئاً كان لهم، ولا أخذت منهم حقاً أو شيئاً كان لهم؟!»[2]..

ولقد كانت معارضة هؤلاء الأمراء هذه الثورة التي اجتاحتهم شديدة وعنيدة. فلقد وحدوا صفوفهم واجتمعوا على معارضة الخليفة، ثم أرسلوا إليه عمته، فاطمة بنت مروان، فذهبت إليه ليلاً تفاوضه، والأمراء المجتمعون في الانتظار. ولقد استقبلها عمر استقبالاً حسناً، فأبرزها عن

(١) (طبقات ابن سعد) ج ٥ ص ٢٥٢.
(٢) المصدر السابق، ج ٥ ص ٢٧٥

دابتها، وجلس إليها، وطلب إليها أن تبدأ الحديث. فقالت:

- لقد أردت لقاءك، لأنه قد عناني أمر لا بد من لقائك فيه. إن قرابتك يشكونك، ويزعمون، ويذكرون أنك أخذت منهم خير غيرك!

- يا عمة، ما منعتهم حقاً أو شيئاً كان لهم، ولا أخذت منهم حقاً أو شيئاً كان لهم؟!..

- إني رأيتهم يتكلمون! وإني أخاف أن يهيجوا عليك يوماً عصيباً؟!..

وعند هذا التهديد الذي أبلغته فاطمة بنت مروان عن الأمراء المجتمعين إلى الخليفة الثائر، قال عمر، في ثبات المؤمن الثائر:

يا عمة، كل يوم أخافه دون يوم القيامة فلا وقاني الله شره!.

ثم أراد أن يضعها أمام منطق المؤمن الثائر الذي يرى في هذه الأموال التي صادرها من بني أمية «مظالم» و«فضولاً» - (زيادات) عن الحاجات الضرورية، ومن ثم فهي «كنز» للمال يحرمه الإسلام ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم، هذا ما

كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون﴾[1] - أراد عمر أن يضع عمته أمام هذا المنطق علها تتأثر به فتنحاز له، فطلب دينار، ومجمرة موقدة بالنار، وقطعة من الجلد، وألقى بالدينار في النار حتى حمي واحمر، ثم ألقاه على الجلد فسمع له صوت وصعد منه الدخان! وعندئذ توجه إلى عمته بالحديث

- أي عمة! أما تأوين (ترقين وترحمين) لابن أخيك من مثل هذا؟!..

ويبدو أن هذا المنطق «الأخروي» لم يكن كافياً لاقناع فاطمة بنت مروان، فألقى إليها الخليفة الثائر بالحجة التاريخية والموقف المالي لاسلام الصدر الأول والتنظيم الاقتصادي للمسلمين الأوائل، كي يضع بين يديها الدليل القاطع على أن الحق معه، وأن مكان هذه الثروات هو بيت مال المسلمين لا حيازة هؤلاء الأمراء وملكياتهم. ولقد بلغت كلمات عمر بن عبد العزيز هذه قمة آيات الاعجاز في الثورية والانحياز لمجموع الأمة وتقرير ملكيتها الجماعية والعامة لثرواتها الأساسية، وعُدَّت وستظل، دستوراً للذين يبحثون، بصدق، عن موقف الاسلام من الأموال والثروات. فإن الخليفة الصالح ثائراً

- يا عمة، إن الله، تبارك وتعالى، بعث محمداً ﷺ،

---

(١) التوبة: ٣٤، ٣٥

رحمة، لم يبعثه عذاباً، إلى الناس كافة، ثم اختار له ما عنده فقبضه إليه. وترك لهم نهراً[1] شرهم فيه سواء! ثم قام أبو بكر فترك النهر على حاله. ثم ولي عمر فعمل على عمل صاحبه. فلي ولي عثمان اشتق من ذلك النهر نهراً؟! ثم ولي معاوية فاشتق منه الأنهار؟! ثم لم يزل ذلك النهر يشق منه يزيد ومروان وعبد الملك والوليد وسليمان، حتى أفضى الأمر إلي، وقد يبس النهر الأعظم؟! ولن يروى أصحاب النهر حتى يعود إليهم النهر الأعظم إلى ما كان عليه!»

فهو يحدد هنا، في وضوح لا لبس فيه، وجلاء لا غموض فيه

ان الثروة في المجتمع هي «النهر الأعظم»، وفي الإسلام قد قرر «شركة الناس واشتراكهم» فيه «فشرهم فيه سواء»!

وأن الانحراف عن هذا المبدأ الإسلامي قد بدأ في عهد عثمان بن عفان، أول خلفاء بني أمية!، عندما شق من النهر الأعظم ونعام نهراً خاصاً! ثم زاد الانحراف عندما ولي معاوية بن أبي سفيان، فشق من النهر الأعظم وانعام أنهراً خاصة! ثم توالت الانحرافات يشق أصحابها الأنهر الخاصة من النهر العام، حتى أفضت الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز فوجد أن النهر الأعظم وانعام قد جف ويبس وأن

---

(١) كناية عن الثروة في المجتمع، كما يتضح من السياق والعبارة

ثورته الاجتماعية والمظالم التي يردها تعني وتستهدف حقيقة كبرى واحدة، هي: جفاف الأنهار الخاصة، وإعادة المياه جميعاً - (الثروة كلها) - إلى النهر الأعظم والعام للأمة جمعاء!

وكما لم تقتنع فاطمة بنت مروان بالعبرة «الأخروية» التي مثلها لها عمر، كذلك لم تقتنع بهذا المنطق الاسلامي الثوري الذي صاغه في هذا الحديث. فنهضت مستأذنة، وقالت له فيما يشبه التهديد بالمقاطعة:

- قد أردت كلامك ومذاكرتك، فأما إذا كانت هذه مقالتك فلست بذاكرة لك شيئاً أبداً؟!..

ثم رجعت إلى الأمراء المجتمعين، وأفضت إليهم باستحالة التوفيق بين مطالبهم ومواقفهم وبين منطق عمر والأمر الذي هو جاد فيه. ولقد لامتهم على ادخالهم «بذرة» العدل والعدالة من بيت عمر بن الخطاب ونسله إلى بيت أمية! فقالت:

- ذوقوا مغبة أمركم في ترويجكم آل عمر بن الخطاب تروجون آل عمر بن الخطاب، فإذا نزعوا الشبه جزعتم صبروا له؟!(1).

ولم تتوقف معارضة الأمراء الأمويين

---

(1) (طبقات ابن سعد) ج ٥ ص ٢٧٥ و(الأغاني) ج ٩ ص ٣٣٧٥، ٣٣٧٦

فجمعوا أنفسهم وذهبوا إليه، وعرضوه على انتزاعه ثروتهم وإقطاعاتهم.. وقالوا له:

- إنك قصرت في عمل كان يصنعه بنا من قبلك؟!

فما كان منه إلا أن هددهم بنقل الخلافة من بني أمية كلية، وبإعادتها إلى جماعة المسلمين شورى كما كانت من قبل، وأفهمهم أنهم لا يستحقون، ليس فقط الأموال التي حازوها ضماً، بل ولا الخلافة التي ستأثروا بها من دون المسلمين وكان عمر يرى أن الأحق بولاية الخلافة من بعده القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق (٣٧ - ١٠٧ هـ ٦٥٧ - ٧٢٥ م) أحد فقهاء المدينة السبعة وصلاحها، أو إسماعيل بن عمرو بن سعيد بن العاص الفقيه العالم الذي كان قد عُرف «بالأعوص»، على بعد أميال من مدينة. هددهم عمر بذلك، وقال:

- لئن عدتم مثل هذا لأحسن لأشدن ركابي ثم أقدمن مدينة، وأجعلنها شورى، فأنا أعرف صاحبها الأعيمش (القاسم ابن محمد بن أبي بكر الصديق)

ولقد حل هذا الخاطر وذلك الروع يرود عمر بن عبد العزيز، ولم يمنعه عنه إلا الخوف من بني أمية أن يشعلوها فتنة تضيع على المسلمين ما استهدف تخفيفه من تغيرات وحتى عندما وضعوا له السم، وعاجلوه، وحضرته الوفاة ظل يردد رأيه هذا، فقال على فراش موته «لو كان لي من الأمر شيء

ما عدوت به القاسم بن محمد، وصاحب «الأعوص» إسماعيل بن عمرو بن سعيد ابن العاص»[1]

ثم كتبوا إلى عمر كتاباً يحتجون فيه ويعارضون، بل ويلمحون بالعصيان، فاستشاط غضباً، ورأى الخليفة التقي الصالح الذي يرفق بالحيوان، ويكتب إلى أصحاب دواب الحمل ألا يثقلوا عليها «باللحم» الثقيلة! وحدثه يغضب لحقوق المسلمين التي يريد هؤلاء الأمراء غيابها من جديد، فيهدد هؤلاء الأمراء «بالذبح»؟! ويقول: «إن لله في بني مروان ذبحاً، وأيم الله لئن كان ذلك الذبح على يدي؟!»

ولقد خافه، عندئذ، هؤلاء الأمراء، لأنهم «كانوا يعلمون صرامته، وأنه إن وقع في أمر مضى فيه وأغلب الظن أنهم قرروا منذ ذلك التهديد ترك المواجهة، والكيد له في الخفاء

ولقد كان عمر يعلم أن هؤلاء الأمراء نفوذاً في الأقاليم والأمصار، وأن لهم على العمال والولاة دالة وسلطاناً، فخشي أن يفسدوا في الأقاليم، على يد العمال، ما يعمل هو لإصلاحه في العاصمة، فكتب إلى أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، والي المدينة، وإلى غيره من الولاة هذا الكتاب[2]

«إياك والجلوس في بيتك، أخرج للناس فاس بينهم في

---

(١) (طبقات ابن سعد) ج ٥ ص ٢٥٣، ٢٥٤

(٢) المصدر السابق، ج ٥ ص ٢٥٣

المحسن والمسيء، ولا يكن أحد من الناس أثر عندك من أحد، ولا تقولن هؤلاء من أهل بيت أمير مؤمنين، فإن أهل بيت أمير المؤمنين وغيرهم عندي اليوم سواء، بل أنا أحرى أن أطل بأهل بيت أمير المؤمنين أنهم يقهرون من نارعهم؟ وود أشكر عليك شيء فاكتب إلي فيه»[1]

هكذا واجه عمر بن عبد العزيز تلك المهمة الصعبة من مهام ثورته الاجتماعية، فاقتحم ميدان رد مظالم بني أمية إلى بيت مال المسلمين، مصدر التقي، ويقين المؤمن، وعزيمة الثائر الصلب الذي لا يلين ولا يفرط في حق من حقوق الله والناس.

ثم انتشرت الثورة إلى الأقاليم والأمصار:

كما قدمنا. فلقد بدأ عمر بن عبد العزيز ثورته الاجتماعية بنفسه، وبزوجه، وبأولاده، وبأمراء بني أمية وأميراتها وبعشيرة الدماء. «إنه بدأ بلحمته - (قرابته) - وأهل بيته، فأخذ ما كان في أيديهم، وسمى أعمالهم مظالم [2] وبعد ذلك شرع يعمم هذه الثورة إلى الأقاليم والأمصار، مستهدفاً ذات الأهداف، وبالتحديد:

---

(١) المصدر السابق. ج ٥ ص ٢٥٢، ٢٥٣

(٢) (الأغاني). ج ٩ ص ٣٣٧٥

* رد المظالم من الذين اغتصبوها إلى مكانها الأول في بيت المال العام..

* وعندما أقسم ثروة الأمة بين الناس بالعدل والمساواة [1] وذلك بصرف النظر عن الأصول العرقية لهؤلاء الناس، فلقد جعل العرب والموالي، في الرزق والكسوة والعطاء والعطاء، سواء [2] بعد أن بلغت العصبية والتمييز العرقي في عهد أسلافه حد التفريق بين الروح وروحته إذا كانت عربية وكان هو من الموالي! وحد منع المسلم غير العربي من أن يؤم العرب المسلمين في الصلاة، كما فعل الحجاج بن يوسف في العراق؟!..

ولقد استهدف عمر من هذه التسوية بين الناس في الرزق والاحتياجات الضرورية، أن يعطي الذين ضاق حرمانهم، وأن يقضي على الاسراف والمسرفين. فلقد كان «الاسراف» وأهله قسمة تميزت بها مجتمعات الخلفاء الذين سبقوه، وذلك وحده يتحدث عن هذه القضية في أول خطبة خطبها عقب البيعة له بالخلافة، فقال «اتقوا الله، واعطوا الحق من أنفسكم، وردوا المظالم، فإني، والله، ما أصبحت لي موجدة - (حقد) - على أحد من أهل القبلة إلا موجدة على ذي اسراف حتى يرده

---

(١) (الخراج) لأبي يوسف، ص ١٦

(٢) (طبقات ابن سعد) ج ٥ ص ٢٧٧

الله إلى قصدا[1] » فعدؤه، كما أعلن، هم طبقة المسرفين

وعندما أخذ عمر في تعميم ثورته الاجتماعية إلى الأقاليم والأمصار:

* كتب إلى والي المدينة - أبو بكر محمد بن عمرو بن حزم أن ينهض فيحضر كل جور حدث في العهود التي سبقت عهد الثورة، سواء أوقع ذلك الجور على مسلم أو غير مسلم، فيرفعه، ويرد الحق إلى أهله، فإن كانوا قد ماتوا رده إلى ورثتهم! » استبرىء الدواوين، فانظر إلى كل جور جاره من قبلي، من حق مسلم أو معاهد، فرده عليه، فإن كان أهل تلك المظلمة قد ماتوا فادفعه إلى ورثتهم»

* وكتب بذلك إلى عامله على العراق، فلما استغرقت حقوق المظلومين ورد المظالم كل ما في بيت مال العراق بعث إليهم المال من الشام حتى يستوفي أصحاب الحقوق حقوقهم!..

وكان عمر يدرك أن تقادم العهد على حدوث الجور والظلم وذهاب الشهود بالموت أو الرحيل، والسلطان الأدبي للظلمة قياساً إلى ضعف المظلومين، كل ذلك يضعف من حجج المظلومين في طلب الحقوق، فتعوزهم الأدلة لإثبات حقوقهم

---

(١) المصدر السابق، ج ٥ ص ٢٩٢.

التي اعتصبهم منهم الطغاة، فكتب إلى عماله يقتص منهم مراعاة هذه الملابسات عند رد المظالم إلى أصحابها، ويعتبره المقدمة فيه «كان يرد المظالم إلى أهلها بعين البصيرة القاطعة، كان يكتفي بأيسر الشك، إذا عرف وجهاً من المظلمة الرجل ردها عليه ولم يكلفه تحقيق بينة، لما كان يعرف من عظم الولاة؟!»[1]...

لقد كان يعلم ضعف المظلومين وراء جدران الظلم، ويدرك بشاعة الجور الذي طال ضحى أصحاب الحقوق بعد أن حرموها، فكان الهدف الذي أعلنه أن يحدث في الناس عدلاً بقدر ما أحدث الذين سبقوه من جور! ولقد عبر عن هذا الهدف عندما كتب إلى بعض عماله فقال له «إن قدرت أن تكون في العدل والإحسان والإصلاح كقدر من كان قبلك في الجور والعدوان والظلم فافعل، ولا حول ولا قوة إلا بالله...»[2].

* وكانت اليمن، قبل خلافة عمر، تحت ولاية محمد بن يوسف الثقفي - أخي الحجاج. فصنع فيها ما يقرب من جور الحجاج بالعراق ومن ذلك أنه فرض على المسلمين ضريبة «خراج» خلافاً لما استقر عليه الأمر في الإسلام من اسقاط

---

(١) المصدر السابق. ج ٥ ص ٢٥٢

(٢) المصدر السابق. ج ٥ ص ٢٨٣.

«الخراج» عمن أسلم. فطلب عمر إلى عامله على اليمن عروة بن محمد بن عطية السعدي إسقاط هذه الضريبة، والاكتفاء بضريبة «العشر»، ولما حدثوه عن الأثر السلبي لذلك على الأموال المجموعة لبيت المال، قال: «والله لئن لا تأتيني من اليمن غير حفنة كتم[1] أحب إلي من إقرار هذه الوظيفة (ضريبة الخراج)[2]!»..

ولما استشعر عمر أن عامله على اليمن يتلكأ في تنفيذ أهداف الثورة ورد المظالم وتعلل بطلب الإيضاحات والتفسيرات، كتب إليه معنفاً فقال: «أما بعد، فإني أكتب إليك أمرك أن ترد على المسلمين مظالمهم فتراجعني؟! ولا تعرف بعد مسافة ما بيني وبينك ولا تعرف أحداث الموت، حتى لو كتبت إليك أن أردد على مسلم مظلمة شاة، لكتبت أرددها عفراء - (بيضاء) أو سوداء! فانظر أن ترد على المسلمين مظالمهم ولا تراجعني؟![3]»

* وكتب عمر إلى عامله على الكوفة: عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب يأمره برد المظالم وتطبيق الثورة على أهل ولايته، وكان كتابه موجزاً لم يتعد سطراً واحداً: «أما

---

(١) الكتم: نبات يخضب به الشعر ويصنع منه مداد الكتابة.

(٢) (تاريخ الدولة العربية) ص ٢٨٧

(٣) (طبقات ابن سعد) ج ٥ ص ٢٨١.

بعد، فما بقاء الإنسان بعد وسوسة شيطان وجور إنسان؟! فإذا أتاك كتابي هذا فأعط كل ذي حق حقه. والسلام!» فلا بد من رد الحقوق لأصحابها، لأن الجور مثله مثل التردي في غواية الشيطان، يذهب بإنسانية الإنسان؟!

ولما كتب إليه عبد الحميد أن لديه، بيت المال، ألف رأس كانت في ملك الحجاج بن يوسف، أمره ببيعها وقسمة أثمانها بين الناس..

ثم توالت إليه الكتب من الخليفة تضع له تفصيلات التطبيق لرد المظالم ورفع الجور عن الناس، مسلمين وغير مسلمين، ومنها كتابه الذي أمره فيه أن يسقط المغارم والهدايا والزيادات التي كان يأخذها الولاة السابقون من أرض الخراج، وذلك حتى يعالج ويداوي جرح الظلم التي أحدثها هؤلاء الولاة.. كتب إليه:

«من عبد الله عمر، أمير المؤمنين، إلى عبد الحميد سلام عليك. أما بعد، فإن أهل الكوفة قد أصابهم بلاء وشدة جور في أحكام الله، وسنة خبيثة استنها عليهم عمال السوء. وإن قوام الدين العدل والإحسان. فلا يكونن شيء أهم إليك من نفسك، فإنه لا قليل من الإثم! ولا تحمل خراباً على عامر، ولا عامراً على خراب، انظر الخراب فخذ منه ما أطاق، وأصلحه حتى يعمر. لا يؤخذ من العامر إلا وظيفة (ضريبة) الخراج، في رفق وتسكين لأهل الأرض. ولا تأخذن

في الخراج إلا وزن سبعة ليس فيها تبر، ولا إدانة قصة، ولا أجور الضرابين، ولا هدية النيروز[1] والمهرجان[2]، ولا ثمن الصحف، ولا أجور الفيوج[3]، ولا أجور البيوت، ولا دراهم النكاح ولا خراج على من أسلم من أهل الأرض فاتبع في ذلك أمري، فإني قد وليتك من ذلك ما ولاني الله، ولا تعجل دوني بقطع ولا صلب حتى تراجعني فيه وانظر من أراد من الذرية أن يحج فعجل له مائة يحج بها والسلام»[4]

فهو، هنا، يأمر عامله على الكوفة بإسقاط أكثر من عشرة أصناف من الضرائب الجائرة التي استحدثها «عمال السوء» فجعلوها «سنة خبيثة» اسنوها، وأرهقوا بها كاهل الناس

* وكتب عمر إلى عامله على البصرة عدي بن أرطأة، يأمره بأن يسقط عن الناس الضرائب والمغارم التي استحدثها ولاة السوء الذين سبقوه، مثل ضريبة المائدة، والنوبة، والمكس وقال عن هذه الضريبة الأخيرة «لعمري ما هو

---

(١) النيروز: عيد أول السنة، وهو عيد الفرس يوم نزول الشمس أو الحمل، وفي التقويم المصري (القبطي) أول شهر توت

(٢) المهرجان: عيد فارسي محل عند نزول الشمس أول الميزان

(٣) الفيوج: مفردها فيج، وهو رسول السلطان الذي يحمل كتبه

(٤) (طبقات ابن سعد) ج ٥ ص ٢٧١، ٢٧٦ و(تاريخ الطبري) ج ٦ ص ٥٦٩. و(الخراج) لأبي يوسف. ص ٨٦.

بالعكس، وبكه التجسس الذي قال الله ﴿ولا تجسسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾[1, 2] .

ولما تبعه أن عمال الخراج بالبصرة يجورون ويكلفون بمقدار غلة الأرض قبل نضج محصولها، فيقدرون المحصول بالظن، ويتعدون في التقدير، وأيضاً يفرضون للثمار أسعاراً مخفضة وبدفعة قبل أن تقرر حركة الأسواق أسعار هذه الثمار، ثم يجبون بفرق بين تقديرهم وبين الأسعار الحقيقية، كتب إلى عدي بن أرطأة ينهاه عن ذلك، ويطلب إليه إبطال هذه التجاوزات، فقال: «بلغني أن عمالك يجرصون[3] الثمار على أهلها، ثم يقولون سعر دون سعر الناس الذين يتبايعون به فيأخذونها قرفاً[4]، على قيمتهم التي قوموها» ونهاه كذلك عن تسليط الحبة على الناس يأخذون منهم بعشر في الصرمة[5].

وقد كتب إليه عدي بن أرطأة يحدثه عن أن من الناس من لا يستجيب لأداء ما عليه من الخراج إلا إذا مسه شيء من

---

(١) البقرة: ٦٠.

(٢) (طبقات ابن سعد) ج ٥ ص ٢٨٣.

(٣) الجرص: الكلف والجور و حكم بالظن

(٤) القرف: العشر، والمراد: القيمة الدفعة

(٥) عن فلوتن (السيادة العربية والشعوب الإسرائيلية) ص ٢٨ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٥ م

العذاب!»، عجب عمر، بل وغضب، وكتب إليه محذراً أن يعذب إنساناً في سبيل الخراج، قال: «أما بعد، فالعجب كل العجب من استئذانك إياي في عذاب البشر، كأني جنة - (وقاية) - لك من عذاب الله! إذا أتاك كتابي هذا، فمن أعطاك ما قبله عفواً، وإلا فأخلفه فوالله لأن تلقوا الله بجناياتهم أحب إلي من أن ألقاه بعذابهم[1]!

* وكتب عمر إلى ولاة الخراج الذين أرادوا، كي يزيد الخراج، أن يفرضوا الجزية على الذين دخلوا في الاسلام، كما كانت العادة التي استقرت قبل خلافته. كتب إليهم مقبحاً رأيهم، وناهياً لهم عن هذا الظلم الشنيع الذي يريدون.

فعندما بعث إليه والي خراج مصر، حيان بن شريح، بأن «الاسلام قد أضر بالجزية» وأن أهل الذمة قد أسرعوا في الاسلام فنقصت الجزية، حتى لقد استدان لاتمام عطاء أهل الديوان! وكان يلمح برغبته في فرض الجزية على من أسلم. كتب إليه عمر: «أما بعد، فقد بلغني كتابك. وقد وليتك وأنا عارف بضعفك! وقد أمرت رسولي بضربك على رأسك عشرين سوطاً! فضع الجزية عمن أسلم. فإن الله إنما بعث محمداً، ﷺ، هادياً، ولم يبعثه جابياً[2]»!

---

(١) (الخراج) لأبي يوسف. ص ١١٩.

(٢) المقريزي (الخطط) ج ١ ص ١٤٣ طبعة دار التحرير القاهرة و (طبقات ابن سعد) ج ٥ ص ٢٨٣.

وكتب مثل ذلك إلى عامله على الكوفة، عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب قال «كتب إلي يسألني عن أناس من أهل الجزية يسلمون، من اليهود والنصارى والمجوس، وعليهم جزية عظيمة وتستأديني في أحد الجزية منهم وإن الله، جل ثناؤه، بعث محمداً، ﷺ، داعياً إلى الإسلام، ولم يبعثه جابياً، فمن أسلم من أهل تلك الملل فعليه في ماله الصدقة، ولا جزية عليه»[1].

هكذا وهذا الموقف المبدئي والفكر المتزن بالعدل واجه عمر بن عبد العزيز تلك الرغبات الشريرة التي توثب عليه من مختلف الأقاليم والأمصار، تريد فرض الجزية على الذين دخلوا في الإسلام وهو بهذا الموقف العادل لم يكن يخفف فقط العبء المالي عن هؤلاء المسلمين الجدد، ولا يفتح فقط الأبواب الواسعة إلى الإسلام، بل يمثله من درجة رقيقة في التدين والاعتقاد الديني وهي كذلك، أيضاً، وذلك هام وخطير، يفتح الأبواب للتآلف والانصهار والاندماج بين الدين صميم دين الإسلام، رغم الأصول العرقية والانتماءات القومية والحضارية التي كانت لهم قبل التدين بالدين الجديد، فقد أزال، باسقاطه الجزية عمن أسلموا، حاجزاً كبيراً يميزهم ويباعد بينهم وبين العرب وأسباب الدين سبقوا إلى الإسلام.

---

(١) (الخراج) لأبي يوسف. ص ١٣١.

* ولقد كان عمر يعزل من عماله من لا يلتزم بالعدل الذي طلب له أن يشيع بين الناس. فلم تكن مهمته تنتهي عند الاجتهاد في الاختيار للعمال، واصدار الأوامر والنواهي والكتابة بالمبادىء والتوجيهات. وإنما كان دائم الرقابة على أعمال هؤلاء العمال، يرسل الرقباء والمفتشين والمراجعين، ويكلف الثقاة الذين يستطلعون آراء العامة في تصرفات العمال..

ولما كتب إليه عامله على خراسان الجراح بن عبد الله الحكمي يستأذنه في استخدام «السيف والسوط» ليتأدب الناس، زاعماً أنهم أهل فتنة يقفزون إلى أحداثها قفز «فليس يكفهم إلا السيف والسوط!» انتهره عمر بن عبد العزيز، ورد عليه «يا ابن أم الجراح! أنت أحرص على الفتنة منهم! لا تضربن مؤمناً ولا معاهداً سوطاً إلا في حق، واحذر القصاص فإنك صائر إلى من يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وتقرأ كتاباً لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها..»

ولكن الجراح كان واليّاً همه بالمال وبيته أكبر من همه بالعدل ومواريثه، فأراد الاستمرار على السنة الخبيثة لولاة السوء الذين سبقوه يأخذ الجزية من الذين دخلوا حديثاً في دين الإسلام. ولما كتب إليه عمر «انظر من صلى إلى القبلة فضع عنه الجزية» أراد أن يتعلل بأن الناس قد دخلوا الإسلام هرباً من

الحرية، وليس رغبة في هدى الدين الجديد، وأشار عليه بعض خاصة السوء أن يجعل «الصحة الاسلام» مواصفات منها «الختان»؟! فلما علم عمر بذلك، تعجب، وكتب إليه مقبحاً رأيه، ومنهياً له على «أن الله، سبحانه، قد بعث محمداً، ﷺ، داعياً، ولم يبعثه خاتناً!»

وأمام هذا الاعوجاج في سلوك الحرج طلب عمر إلى واحد من قراء خراسان الصالحين أن يقدم إليه تقريراً عن حال الولاية وصنيع الوالي مع الناس، فاستدعى أبا الصيداء صالح بن طريف وسأله عن ذلك فقال له: «يا أمير المؤمنين عشرون ألفاً يعزون بلا عطاء ولا رزق! ومثلهم قد أسلموا من أهل الذمة يؤخذون بالخراج! وأميرنا عصبي - متعصب للعرب ضد الموالي» - خاف - (خشن) - يقوم على منبرنا فيقول: أتيتكم جافياً، وأنا اليوم عصبي! والله لرجل من قومي (العرب) - أحب إلي من مائة من غيرهم! وبلغ من جفائه أن كم درعه يبلغ نصف درعه وهو بعد سيف من سيوف الحجاج، قد عمل بالظلم والعدوان!..[1].

فلم يجد عمر بن عبد العزيز بداً من عزل هذا الوالي الذي أراد، في ظل الثورة الاجتماعية وعدها المرجو، أن يسير في الناس بسيرة عمال السوء الذين سبقوا عهد هذا الخليفة العظيم..

---

(١) (تاريخ الطبري) ج ٦ ص ٥٥٨ - ٥٦٠.

* وفي سمرقند اشتكى الناس إلى واليها سليمان بن السري من الظلم الذي لحقهم عندما فتح بلادهم القائد قتيبة بن مسلم (٤٩ - ٩٦ هـ ٦٦٩ - ٧١٥ م) وقالوا أن بلادهم قد فتحت «صلحاً» وأنهم قد دخلوا في إطار الدولة سلماً، ولم تفتح بلادهم «عنوة» بالسيف والقتال، ولكن قتيبة زعم أنه فتحها «عنوة» حتى تعامل أرضها معاملة الأرض المفتوحة عنوة فيطرد منها أصحابها وتوزع على الجند الفاتحين! وطلبوا من الوالي السماح لوفد منهم بالسفر للقاء أمير المؤمنين «لأن قتيبة قد غدر بنا، وظلمنا، وأخذ بلادنا. وقد أظهر الله العدل والانصاف - (بخلافة عمر بن عبد العزيز) - فأذن لنا فلنفد منا وفد إلى أمير المؤمنين يشكون ظلامتنا، فإن كان لنا حق أعطيناه، فإن لنا إلى ذلك حاجة!» فأذن لهم الوالي بالقدوم على عمر، فاستقبلهم، وسمع شكواهم، وكتب إلى سليمان يطلب منه أن يعاد النظر، بواسطة القضاء، في موضوع شكوى السمرقنديين. قال: «إن أهل سمرقند قد شكوا إلي ظلماً أصابهم، وتحاملاً من قتيبة عليهم حتى أخرجهم من أرضهم، فإن أتاك كتابي فاجلس لهم القاضي، فلينظر أمرهم فإن قضى لهم فأخرجهم إلى معسكرهم كما كانوا وكنتم قبل أن ظهر عليهم قتيبة[1]!»

* وكانت حالة أهل سمرقند هؤلاء، ومثلها كثير، قد

---

(١) المصدر السابق ج ٦ ص ٥٦٧، ٥٦٨.

طرحت على عدل عمر بن عبد العزيز قضية قديمة، ورثها ضمن ما ورث من سيئات القادة الذين فتحوا الكثير من البلاد في عهد الخلفاء الأمويين السابقين. فلم تكن فتوحاتهم هذه لحماية الدعوة الإسلامية أو تأمين الدعاة إلى الإسلام، لأنها كانت لبلاد لا تمثل أي خطر على الدين الجديد والداعين إلى عقائده. وأكثر من ذلك فإن هؤلاء القادة الفاتحين لم يكونوا دعاة إلى الإسلام، وإنما كانوا باحثين عن الأرض والمغانم والثروة والثراء، ولم يكن بهم أدنى حرص على دخول أهل البلاد المفتوحة إلى الدين الجديد، بل كان حرصهم الأول والأخير على الجزية والخراج، حتى لقد استمروا يحصلون الجزية والخراج، من الذين أسلموا، وكأن الإسلام لا يعني شيئاً في الموضوع!..

وكان على عمر بن عبد العزيز أن يعالج، بعدله وثورته، أمر الفتوحات التي استهدفت وتستهدف الفيء والغنيمة لكسب المؤمنين بالدين. لأن الإيمان، وهو تصديق بالقلب ويقين باطني، لا يمكن تحصيله بالقوة أو كسب الأنصار له بالسيف والقتال! لقد من عمر بن عبد العزيز أن كسب المؤمنين بالدين الجديد سبيله الدعوة إلى سبيل الله بالتي هي أحسن، بالقدوة الطيبة وتقديم العدل الذي افتقده الإنسان وطال إليه شوق الناس. وليس بالفتح والجزية والخراج.. ومن هنا جاءت خطوته غير المسبوقة عندما أوقفت فور توليه الخلافة، هذا اللون من الفتوحات. فلقد أصدر أمره إلى الجيش

الغازي، بقيادة عبد الرحمن بن نعيم، بلاد ما وراء النهر بالرجوع من تلك البلاد، ولقد جاء في كتابه إلى عبد الرحمن بن نعيم قوله: «اللهم إني قد قضيت الذي عني، فلا تغر بالمسلمين، فحسبهم الذي قد فتح الله عليهم!»[1] وكذلك بعث بأمر مماثل إلى مسلمة بن عبد الملك (١٢٠ هـ ٧٣٨ م) وهو بأرض الروم، يأمره بالرجوع منها بمن معه من المسلمين، بل وبعث هذا الجيش بالخيل والطعام كي يعينه على الرجوع إلى بلاد الاسلام![2].

وفي الوقت الذي أوقف فيه فتوح البلدان بالغزو والقتال وجه الكتب والدعاة يدعون إلى الاسلام، بالسلم، والقدوة، والنموذج العادل الذي يمثل مركز جذب للقلوب والعقول فدخل الناس في الاسلام، ولم يطلب من هؤلاء الذين اسلموا خراجاً، على حين كان الفتح والغزو، فيما مضى، لا يثمر سوى الخراج، حتى من الذين دخلوا في الدين الجديد! لقد كتب عمر إلى ملوك السند «يدعوهم إلى الاسلام والطاعة على أن يملكهم، ويكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، وكانت قد بلغتهم سيرته ومذهبه، فاسلموا، وتسموا بأسماء العرب[3]!» وكذلك كتب إلى البربر، بالشمال الأفريقي،

---

(١) المصدر السابق، ج ٦ ص ٥٦٨

(٢) المصدر السابق، ج ٦ ص ٥٥٣

(٣) (تاريخ الدولة العربية) ص ٢٨٣، ٢٨٤

فدخلوا في الاسلام، وعندئذ وضع عنهم الجزية، وكانوا يدفعون أبناءهم جزية، بدلاً من المال، في عهد الخلفاء الذين سبقوه[1]!

* وشدد عمر بن عبد العزيز في منع «السخرة» واستغلال عمال الدولة لنفوذهم حتى ليحكي عامل البريد «ربيعة الشعودي» أن دابة البريد قد انقطعت به في مكان من أرض الشام، وهو في طريقه إلى الخليفة «بحناصرة»، فسخر لركوبه دابة من دواب الرعية، فلما علم بذلك عمر استنكر فعلته، وقال: «تسخر في سلطاني؟!» ثم أمر به فضرب أربعين سوطاً[2]!..

وكتب إلى عماله وولاته بمنع الجباة الذين اخترقوا جباية الضرائب والمكوس عند المعابر وعلى الجسور، لما ثبت له تعديهم للحدود العادلة، وعين في كل مدينة رجلاً من أهلها يجمع منهم الزكاة[3]..

ونهى عماله أن يأخذوا زكاة أرباح التجار إلا إذا حال الحول - (مضى العام) - على هذه الأرباح[4]

---

(١) المصدر السابق. ص ٢٨٥.

(٢) (طبقات ابن سعد) ج ٥ ص ٢٧٦.

(٣) المصدر السابق. ج ٥ ص ٢٧٩.

(٤) (الأموال) لأبي عبيد القاسم بن سلام ص ٥٦٩ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨ م

وكان من عمال الدولة من يتقاضى أجراً من مصدرين، مع العامة، كواحد من أصحاب العطاء، ومع الخاصة، كعامل من عمال الدولة. فكتب عمر إلى الولايات بإبطال هذا الازدواج، وقال للولاة: «أما بعد، فلا يخرجن لأحد من العمال رزقاً في العامة والخاصة، فإنه ليس لأحد أن يأخذ رزقاً من مكانين، في العامة والخاصة، ومن كان أخذ من ذلك شيئاً فاقبضه منه ثم ارجعه إلى مكانه الذي قبضه منه والسلام[1]!» أي أنه منع الجمع بين «مرتبين ودخلين» للفرد الواحد، وأبطل ذلك بأثر رجعي!»

وكان الولاة والخلفاء، قبل عمر بن عبد العزيز، يستخدمون فروق الدنانير والدراهم في استغلال الناس، فطلب عمر علاج ذلك، ولمصلحة الفقراء، فكتب إلى القائم على دار «سك النقود» - (بيت الضرب) - بدمشق يقول له: «ومن أتاك من فقراء المسلمين بدينار ناقص فأبدله به بوزان[2]!»

ومنع العمال الذين يجمعون الزكاة والصدقات من الاستئثار بميراث الأموال التي يجمعون صدقاتها، فأمر أن تقسم هذه الأموال، عند أخذ صدقاتها، ثلاثة أقسام، يختار صاحبها قسمان، ثم يأخذ العمال صدقاتها من الثلث الأخير[3].

---

(١) (طبقات ابن سعد) ج ٥ ص ٢٧٨

(٢) المصدر السابق. ج ٥ ص ٢٧٦.

(٣) (الأموال) لأبي عبيد. ص ٥٥٦.

* وكان الوضع قد استقر منذ فتحت المجتمعات الزراعية الرئيسية - مصر والشام والعراق وفارس - على عهد عمر بن الخطاب على أن تظل أرضها بأيدي أصحابها الأصليين، مقابل دفعهم عنها ضريبة «الخراج»، مع نقل ملكية رقبة في الأرض إلى بيت مال المسلمين، أي إلى مجموع الأمة، بأحيائها كلها، الحاضرة منها والآتية. وكان مقتضى هذا النظام ألا تباع هذه الأرض، وألا تنقل من ضريبة «الخراج» إلى ضريبة «العشر» المقررة على أرض العرب المسلمين، وهي أقل من ضريبة «الخراج». ولكن أشراف العرب وسادتهم، وخاصة في ظل الدولة الأموية أخذوا في شراء الأرض الخراجية، وصاروا يدفعون عنها ضريبة «العشر» فقط، الأمر الذي أضعف يرد كثير من ضريبة الخراج، وأضر بالغ من تركات البلاد الأصليين. وزاد من ثراء الأشراف والسادة العرب، والقرشيين منهم على وجه الخصوص، وزاد الطين بلة أن هؤلاء السادة الملاك لم يكونوا يقتصرون لأرض بأنفسهم، وإن كانوا يمارسون فيها علاقات الإنتاج الإقطاعية كملاك كبار.

ولقد حدثت ثورة عمر بن عبد العزيز على هذا الوضع، فأمر أن تظل الأرض الخراجية بأيدي الفلاحين من أهل البلاد الأصليين، ومن أسلم من هؤلاء، وأراد الانتقال إلى المدن التي نشأت في هذه البلاد لسكنى جيوش الفتح العربية وعدت المجتمعات الإسلامية فيها فلا يحق له الاحتفاظ بما كان بيده من الأرض، أو نقلها من «خراجية» إلى «عشرية»، من غير أن يتركها من لا

يرانون على ارتباطهم واستقرارهم في قراهم «أيما قوم صولحوا على جزية، فمن أسلم منهم كانت أرضه لبقيتهم[1]»، وبمعنى آخر، ولغة حديثة أمر عمر بن عبد العزيز أن تظل الأرض الخراجية بيد من يفلحونها وكذلك منع تملك العرب لها منذ سنة ١٠٠ هـ[2] أما الذين تملكوا مساحات منها قبل خلافة عمر بن عبد العزيز فإنه قد فرض عليهم ضريبة مزدوجة جزية الأرض (أي خراجها) وكذلك «العشر» «ومن أخذ أرضاً بجزيتها لم يمنعه أن يؤدي عشر ما يزرع، وإن أعطى الجزية . عليه العشر مع الخراج..»[3]

وفي الوقت الذي كان عمر يقرر فيه هذا «الازدواج» الضريبي على أشراف العرب وسادتهم الذين تملكوا، قبل عهده، أرض الخراج، كان يعالج بعدله ويخفف المظالم التي أثقلت كاهل أهل الخراج، فلقد أسقط عنهم الكسور التي تراكمت من فروق العملات[4]..

وفي الوقت الذي منع فيه بيع أرض الخراج، كي تظل ملكاً لمجموع الأمة، وحتى لا تنتقل ملكية الأرض للذين لا

---

(١) المصدر السابق ص ٢٢٧.

(٢) (تاريخ الدولة العربية) ص ٢٧١، ٢٩٣.

(٣) (الأموال) لأبي عبيد. ص ١٢٧.

(٤) الماوردي (الأحكام السلطانية) ص ٨١

يفتحوها، أحيا المبدأ الإسلامي الذي يمجد العمل، ويرى فيه المعيار الذي يعطي للأشياء قيمتها، فشجع الناس على إحياء الأرض الموات، لأن من أحيا أرضاً مواتاً فهي له، واستبشر الناس في إزالة المياه التي تغمر الأرض فتحول دون زراعتها، لأن نزع الماء من الأرض هو بمثابة إحيائها [1].

* ولم تقف ثورة عمر وعدالته عند حدود المسلمين، بل شملت الرعية على اختلاف المعتقد والأديان، فعندما ثارت شبهات يريد أصحابها إخراج المجوس من إطار (أهل الكتاب) المتدينين بدين يعترف به الإسلام، ومن ثم إخراجهم من دائرة روابط (المودة) التي تحكم علاقات المسلمين بأهل الكتاب، وبالتبعية ترتب واجبات سياسة وعقائدية ومالية لا تترتب على أهل الكتاب، عندما ثارت هذه الشبهات استفتى عمر بن عبد العزيز الحسن البصري في الأمر، فأفتى بأن رسول الله ﷺ قد قبل من مجوس أهل هجر الجزية، وأقرهم على مجوسيتهم ثم أقرهم أبو بكر، ثم عمر وعثمان [2]، فهم كأهل الكتاب لهم ما لهم من حقوق وعليهم ما عليهم من واجبات.

وكتب عمر إلى عماله أن يرفعوا المعاناة عن الذين يعانون قسوة العيش من أهل الكتاب، وأن يكفل لهم بيت مال المسلمين

---

(١) (الأموال) لأبي عبيد، ص ٤٠١، ٤٠٢.

(٢) (الخراج) لأبي يوسف، ص ١٣٠، ١٣١.

كريمة. وفي كتابه إلى عامله على البصرة، عدي بن أرطاة، يقول له: «أما بعد، فانظر أهل الذمة فارفق بهم، وإذا كبر الرجل منهم، وليس له مال، فانفق عليه، فإن كان له جميم فمر جميمه ينفق عليه»[1]. فلا فرق ولا تفرقة هنا بين المسلمين وغيرهم فيما تتطلبه حياة الإنسان الكريمة من معاش.

وكذلك أمر بإلغاء الزيادات التي زيدت، على عهده، فيما صولح عليه أهل الكتاب، في «أيلة» و«فرض» وغيرهما من البلاد[2]..

* وصدرت أوامر عمر إلى ولاته بالرفق بالناس، ونهى عن التعذيب في استخلاص الحقوق، وحذر من «التمثيل» بأحد، حتى ولو كانت «المثلة» حز الرأس أو حدف الضحية[3]. وذلك بعد أن بلغت «المثلة» والتعذيب، قبل عهده، حدا فاق في بشاعته الأساطيرا..

بل لقد امتد عمر بعدله فشمل به المسجونين! فنهى عن قيد المسجونين بالسلاسل التي تعوقهم عن أداء فرض الله، وأمر ألا يبقى مسجون في قيده، إلا أن يكون مطلوبا في

(١) (طبقات ابن سعد) ج ٥ ص ٢٨٠

(٢) (تاريخ الدولة العربية) ص ٢٩١.

(٣) (طبقات ابن سعد) ج ٥ ص ٢٨٠.

قصاص قتل، فيخشى منه الهرب وضياع القصاص. وطلب أن يتعهد الولاة طعام المسجونين، فيجرون عليهم من الصدقات ما يصلح أمرهم في «الطعام والأدم»[1]. وأن يتعهدوا المرضى منهم، وخاصة من لا أهل له ولا مال. وطلب الفصل، في السجون، بين المحنثين الخبثاء من أهل الشذوذ، وبين غيرهم من أهل الجرائم غير الحسية. كما شدد على ضرورة إفراد النساء بسجن خاص. ونبه ولاته وعماله على ضرورة الاختيار الحسن لمن يعهد إليهم بالإشراف على السجون: «وانظر من تجعل على حسبك من تثق به، ومن لا يرتشي، فإن من ارتشى صنع ما أمر به!». وأكثر من هذا طلب إلى الولاة أن يجلسوا كل يوم سبت، من كل أسبوع، فيعرض عليهم المسجونون للتفتيش على أحوالهم، وانظر فيما عساه يكون لهم من شكاوى أو ظلامات![2]

* ولقد امتدت الثورة الاجتماعية لعمر بن عبد العزيز فشملت الجوانب الأخلاقية في المجتمع، واشتهرت أوامره في هذا الميدان حتى أغنت شهرتها عن الإفاضة في أخبارها. فهو قد شدد في منع الخمر، وأمر «برقاقها» فشققت، و«بقواريرها» فكسرت. ونهى غير المسلمين، الذين كانوا يتجرون فيها، عن إدخالها مدن المسلمين ومواطن سكناهم[3].

(١) (الخراج) لأبي يوسف. ص ١٥٠.
(٢) (طبقات ابن سعد) ج ٥ ص ٢٦٢، ٢٦٣.
(٣) المصدر السابق. ج ٥ ص ٢٦٩

وطلب إلى الرجال الذين يرتادون الحمامات ألا يدخلوها عراة، فأمر أن يتخذ كل مرتاد لها «مئزراً» يأتزر به، سترا للعورة. ونهى النساء من ارتياد هذه الحمامات[1].

هكذا امتدت الثورة الاجتماعية لعمر بن عبد العزيز. بدأت بدأت الخليفة عندما طبق مبادئها، في رد المظالم، على نفسه قبل سواه. وبزوجه وولده، قبل بيوت الآخرين. وبأمراء بني أمية وأمرائها. ثم انطلقت شرارتها إلى الأقاليم والأمصار، ترد المظالم وتعيد الحقوق وتداوي الجراح التي استبدت بجسد الأمة طوال العهود التي سبقت عهد هذا الخليفة الصالح الثائر العظيم..

ولقد صدق القدماء عندما قالوا: «إنه لم تكن همة عمر بن عبد العزيز إلا:

* رد المظالم..

* والقَسْم بين الناس!..[2].

وعندما قالوا: إن كتبه إلى عماله وولاته على الأمصار والأقاليم ما كانت لتخلو من:

* رد مظلمة من غاصبها إلى صاحب الحق فيها

---

(١) المصدر السابق، ج ٥ ص ٢٦٣.

(٢) (الخراج) لأبي يوسف، ص ١٦.

* أو إحياء سنة حسنة أماتها الذين سبقوه

* أو إطفاء بدعة سيئة أحياها المتقدمون عليه

* أو قسم في الأموال بين الناس بالعدل

* أو تدبير عطاء يعين بتقديره الولاة والعمال على العدل بين أصحاب العطاء..

* أو خير يصنع به ويدعو إليه الولاة وعامة الناس.

كان ذلك دأبه ودأب كتبه، منذ تولى إمرة المؤمنين حتى خرج من الدنيا[1] راضياً مرضياً.

---

(١) (طبقات ابن سعد) ج ٤ ص ٢٥٢.

ورجل الدولة

[إن للسلطان أركاناً لا يثبت إلا بـ

- فالوالي ركن
- والقاضي ركن..
- وصاحب بيت المال ركن
- والركن الرابع أمير المؤمنين؟!..]

عمر بن عبد العزيز

عجيب أمر هذا الاتفاق في حكم المعادي لعمر بن عبد العزيز بين كل من أمراء بني أمية الذين تصدوا لإجراءاته الاجتماعية الثورية، وزعموا أنه قد حرمهم من الخير الذي أسبغه عليهم الخلفاء الذين سبقوه، ومنع عنهم ما زعموه حقاً لهم مقرراً ومكتسباً، حتى بلغ بهم المطاف في التصدي والاعتراض إلى الحد الذي دسوا فيه السم لهذا الخليفة العادل الصالح فمات في ريعان شبابه، وقبل أن يقضي كل وطره في العدل والإصلاح. عجيب أن يتفق مع هؤلاء الأمراء، في إدانة عمر بن عبد العزيز، عدد من المستشرقين، أبناء الحضارة الأوروبية الرأسمالية، الذين زعموا أن الإصلاحات المالية والتغييرات الاقتصادية الجذرية التي أحدثها قد أضعفت «الدولة» الأموية، وعجلت بزوالها، وأن إزالته لمظالم الولاة الذين سبقوه ومنهم الحجاج بن يوسف - قد أنقصت إيرادات «الدولة»، ففتحت الباب لزوال حكم الأمويين!

ورغم غرابة هذا الاتفاق ضد إصلاحات عمر بن عبد

العزيز، إلا أن فهم دوافعه ليست بالأمر المستعصي على الكشف والتحليل..

أما دوافع أمراء بني أمية، فواضحة مفهومة. فهم قد جاروا مظالم، وامتلكوا اقطاعات، وتمولوا أموالاً، واقتنوا تحفاً ونفائس، رآها عمر. مظالم مغتصبة ومنتزعة من نهر الثروة الأعظم والعام، فانتزعها منهم وردها إلى مجموع الأمة، صاحبة هذا النهر الأعظم والعام. ولقد عاملهم، في هذه القضية، معاملته لنفسه، عندما رد إلى بيت المال ما في حيازته، وقال: «إن أهلي أقطعوني ما لم يكن لي أن آخذه، ولا لهم أن يعطونيه»[1].

أما المستشرقون الذين حملوا إصلاحات عمر وثورته مسؤولية إضعاف «الدولة» الأموية، وفي مقدمتهم

* البارون النمساوي: الفريد فون كريمر

(ALFRED VON KREMER) (١٨٢٨ - ١٨٨٩ م)

* والألماني: أوجست موللر.

A. MULLER (١٨٤٨ - ١٨٩٢ م).

---

(١) الكامل في التاريخ - ج ٥ ص ٢٤.

فإنهم ينطلقون من منطلق فكري ومناخ حضاري تمثل في الحضارة الغربية الرأسمالية، التي وصلت في تبرير الاستغلال إلى حد الاستعمار، وأيضاً، وذلك هام جداً، من مناخ الفكر الألماني الذي يمجد «الدولة»، كدولة، ويرى فيها المطلق الذي تنضوي تحته الأجزاء، والكل الذي تخضع له التفاصيل. وهو مناخ ومزاج صنع الفكر الألماني منذ هيجل (HEGEL) (١٧٧٠ - ١٨٣١ م) حتى بسمارك (BISMARCK) (١٨١٥ - ١٨٩٨ م) وتأثر به هؤلاء المستشرقون. ولهذا كانت مظالم الحجاج بن يوسف والضرائب الظالمة التي وظفها على الموالي وغيرهم إجراءات واقعية تتطلبها سلطة «الدولة» على حين كان عدل عمر بن عبد العزيز، وإلغاؤه للجور والعسف ورده للمظالم سياسة غير حصيفة، أضعفت «الدولة» وعجلت بزوالها[1]. وهي في أخف الأحكام، عند المستشرق الهولندي فان فلوتن (VAN G. FLOTEN) (١٨٦٦ - ١٩٠٣ م) سياسة أملتها «الرجعية والمحافظة الدينية» التي جعلت عمر بن عبد العزيز يتمسك تمسكاً شديداً «بالنظام الذي سنه عمر بن الخطاب» رغم ما كانت تتطلبه الحال من العدول عن ذلك النظام عدولاً

---

(١) آراء هذين المستشرقين مبسوطة في كتاب كريمر (تاريخ حضارة المشرق) ج ١ ص ١٧٤ وما بعدها، وكتاب مونتر (تاريخ الإسلام في المشرق والمغرب) ج ١ ص ٤٣٩ وما بعدها، انظر عنها (تاريخ الدولة العربية) ص ٢٦٣ وما بعدها.

تاماً!» وتمضي فان فلوتن فيقول: «ان سياسة عمر بن عبد العزيز كانت أبعد أثراً في وهن العرش الأموي من سياسة الحجاج ابن يوسف وسوء إدارته!»..

فالدفاع هنا عن «العرش»، والحرص منصبّ على «الدولة». أما الجماهير التي استفادت من العدل، فليس لها كبير اعتبار! بل ان فان فلوتن يلمس القضية بصراحة عندما يقول: «ان الآمال التي أثارتها إجراءات عمر بن عبد العزيز في النفوس لم تنطفىء حدوتها، حتى أصبحت الشعوب تنتظر خلاصها من حكم بني أمية!»[1]

إذن فنحن أمام منطق يحرص أصحابه على «الدولة» القوية و«العرش» المستقر، حتى لو اعتمدت أسسهما واستقرت قوائمهما في الظلم والجور وسوء الادارة! ويرى أصحاب هذا المنطق أن الاصلاحات التي تثير حدوة الأمل في النفوس والطموح للعدل عند الأمم، مما يقوض «الدولة» أو يضعف «العرش» هي أمور سلبية، وقع فيها عمر بن عبد العزيز!

وإذا كان ذلك كافياً في فهم منطق هؤلاء المستشرقين، الذين كانوا أبناء بررة للحضارة الرأسمالية الأوروبية وللمناخ

(١) (السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات) ص ٥٩، ٦٠

الفكري والمزاج السياسي الذي يقدس «الدولة» و«النظام» فإن الأمم والشعوب، بالطبع، لها منطق آخر ومنطلق مغاير للمنطق والمنطلق اللذين وقف خلف حكم هؤلاء المستشرقين على ثورة عمر بن عبد العزيز.

فـ«الدولة» إجهاز حكم تقيمه الأمة كي يلبي مطالبها ويحقق احتياجاتها، فإذا لم يحقق تلك الغاية، وتحول إلى الضد، فلا بأس بل لا بد من التغييرات التي تفتح الطريق لأمان جديدة في «دولة» جديدة تكون أجدر وأقدر على تحقيق الأهداف «فالأمة» هي الأصل، «والعدل» هو الغاية، بل إنه وسيلة لغاية أكبر هي سعادة الإنسان، ومن ثم فإن «رسوخ الدولة» أو إهتزاز قوائمها ليس المعيار في الحكم بالصواب والخطأ على الإصلاحات والتغييرات

* * *

ثم هل حقاً أضعفت الإصلاحات الاقتصادية الجذرية التي أجراها عمر بن عبد العزيز مالية الدولة الأموية فعجلت بانهيارها؟!..

سنطرح وسنجد أن هؤلاء المستشرقين قد جانبهم الصواب في «الوقائع» كما جانبهم في «التحليل»!

* فالدولة الأموية عاشت بعد حكم عمر بن عبد العزيز

ثلاثين عاماً، وعندما انهارت أمام الثورة العباسية لم تكن انهيارها من قلة في المال أو جوع في بيته، فكل العروش التي انهارت والدول التي احتضرت قد خلفت وراءها من الكنوز والبذخ والثراء ما افتقرت لعشر معشاره الدول الشابة التي قامت على أنقاضها! لقد انهارت الدولة الأموية تحت مطارق الثورات - (هاشمية، وخوارج، ومعتزلة) - التي انتشرت على امتداد أقاليمها وأمصارها.

* وهذه الثورات لم تكن وليدة الأمان التي فجرتها إصلاحات عمر بن عبد العزيز. فمن قبل حكمه كانت للشيعة ثورات، وللخوارج ثورة مستمرة، وللمعتزلة مشاركات في الثورة على الأمويين. وفترة حكم عمر كانت الاستثناء في العهد الأموي كله، إذ فيها قام «السلام العام» فالتقطت الدولة أنفاسها وأنجزت ما أنجزت من إصلاحات. لم تخلق، إذن، إصلاحات عمر الأمان لدى الجماهير، بعد أن كانت معدومة، وإنما هي قد أثبتت أن من بني أمية أيضاً خلفاء يمكن أن يكونوا معقد الأمان؟! وهذا أمر في صالح الأمويين، وليس ضدهم.

* لقد تولى الحكم بعد عمر بن عبد العزيز يزيد بن عبد الملك (١٠١ - ١٠٥ هـ ٧٢٠ - ٧٢٤ م) فارتد بالنظام المالي والاجتماعي إلى ما كان عليه قبل حكم عمر. عزل الولاة، وانتزع الحقوق التي وزعت، وأعاد الضرائب التي ألغيت ومنها

ضريبة الخراج على الذين أسلموا، وقال لعامله على اليمن «خذها منهم ولو صاروا حرضاً. (ساقطين من الهزال عاجزين عن النهوض)»[1]. فلو كانت هذه المظالم قوة «للدولة»، فها هي قد عادت، ولا تبعة إذن على إصلاحات عمر في ضعف الدولة وزوالها!

* وأخيراً، فإن ثورة عمر بن عبد العزيز وعدله وما أحدث في المال والاقتصاد من تغييرات لم تنقص مالية الدولة ولم تفقر بيت المال، ولقد تعلق المستشرقون الذين ظنوا ذلك، وبنوا أحكامهم على هذا الظن بنتف واهية من الأخبار.

صحيح أن المال قد نفد من بيت مال العراق سداداً للحقوق ورداً للمظالم. ولكن هذا النقص قد جبر من بيت مال الشام[2]. ثم أن التعلق بخبر كهذا وواقعة كتلك لا يصلح أساساً تصدر عنه الأحكام على مالية الدولة في عهد عمر بن عبد العزيز:

* فالأرض الخراجية التي امتلكها الأشراف العرب، والتي كانت تدفع ضريبة «العشر» فقط، جعلها عمر تدفع «العشر» و«الخراج»، وهو الضريبة الأساسية على الأرض بعد أن كان

---

(١) ابن خلدون (العبر) ج ٣ ص ٧٦ طبعة بولاق سنة ١٢٨٤ هـ

(٢) طبقات ابن سعد ج ٥ ص ٢٥٢

في تناقص مستمر بسبب تحول الأرض الخراجية إلى ملكية هؤلاء الأشراف!

* والحقوق التي حصلت عليها الجماهير بعدل عمر لا بد وأنها قد أطلقت طاقاتها المنتجة من عقالها، فلقد أحيت آمالها وأذكت طموحاتها عندما أصبح العائد والثمر مضموناً للعاملين!

* وإلغاء الدخول المزدوجة لعمال الدولة - (العطاء + المرتب) - قد أحدث وفراً في بيت المال..

* وهذه الثروات غير المحدودة التي سبق وانتزعت من بيت المال فجارها الأمراء والسادة والأشراف والأثرياء - (قطاعات، وأموال، وتحف ونفائس ... الخ) لا بد وأن تكون قد انعشت مالية البلاد!..

* والمناطق والمرافق التي كانت حكراً للدولة (حمى) والتي كانت الاستفادة بها وقفاً على قلة من الأمراء والخاصة قد أصبحت عامة لأبناء الأمة - وكان من بينها مراع وجزائر[1] - وهذه الإباحة لا بد وأن تكون قد أسهمت في رخاء العام، الذي ينعكس بدوره في الزكاة والضرائب التي تصل إلى بيت المال..

بل إن الوقائع التي تذخر بها مصادر التاريخ لتؤكد أن

---

(١) المصدر السابق ج ٥ ص ٢٧٧، ٢٨١

واقعة نفاد الأموال من بيت مال العراق سداداً للحقوق، إنما كانت أمراً موقوتاً، ولم يكن نقصاً في إيراد بيت المال بالعراق، ولا دليلاً على ضعف مالية البلاد..

فعمر بن عبد العزيز يكتب إلى واليه على العراق، عبد الحميد ابن عبد الرحمن، يطلب منه أن يخرج إلى الناس أعطياتهم. فيجيبه الوالي: «إني قد أخرجت للناس أعطياتهم، وقد بقي في بيت المال» فيكتب إليه عمر طالباً منه أن ينهض بسداد ديون المدينين، الذين استدانوا في غير سفه ولا إسراف، سداد ديونهم من بيت المال.. فينهض الوالي بذلك، ويكتب لعمر ثانية أن بيت المال ما زال عامراً. فيطلب إليه الخليفة أن يزوج من ليس له مال ظاهر، من بيت المال! فينفذ الوالي، ويكتب لعمر مرة أخرى: «إني قد زوجت كل من وجدت، وقد بقي في بيت مال المسلمين مال!» فيكتب إليه الخليفة: «انظر من كانت عليه جزية فضعف عن أرضه فأسلفه ما يقوى به على عمل أرضه، فإنا لا نريدهم لعاماً ولا لعامين؟!»[1].

هذا هو حال بيت مال العراق، على وجه الخصوص، ينهض بأعطيات الناس، وسداد ديون المدينين، وتزويج الراغبين في الزواج ممن ليس لهم مال ظاهر، ثم تخرج منه

---

(١) (الأموال) لأبي عبيد، ص ٣٥٧، ٣٥٨.

«سلف إنتاجية» لإعانة الفلاحين على استغلال الأرض لأن الدولة تخطط لمستقبل هذه الأرض البعيد. وبعبارة عمر أسلفهم ما يقوون به على عمل أرضهم «فإنّا لا نريدهم لعام ولا لعامين!»..

وأكثر من هذا فإن مصادر التاريخ تثبت أن خراج العراق كان على عهد عمر بن عبد العزيز أعظم منه على عهد الحجاج! فلقد بلغ في عهد الحجاج ١١٨,٠٠٠,٠٠٠ درهم «بعشمه وجرابه»[1] بينما أصبح على عهد عمر بن عبد العزيز ١٢٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم «بعدله وعمارته» والمؤرخون يرجعون هذه الزيادة إلى «عدل عمر وعمارته»[2]

---

(١) أي أن الحجاج جمع هذا الخراج «بالعشم» وهو العسف والجور وسوء التقدير وفساد الإدارة، كما جمعه من «الأرض الجراب»، أي غير العامرة، فلقد كان الولاة قبل خلافة عمر بن عبد العزيز يفرضون على الأرض «الجراب» غير المنتجة، خراجاً يجمعونه من الأرض «العامرة» التي تزرع. ولقد سبق أن أشرنا إلى إبطال عمر بن عبد العزيز هذا الظلم ضمن ما أحدث في الولايات من تغيرات.

(٢) الماوردي (الأحكام السلطانية) ص ١٧٥. ويؤيد زيادة خراج العراق على عهد عمر بن عبد العزيز ابن خرداذبه في (المسالك والممالك) ص ١٤ طبعة ليدن سنة ١٨٨٩ م. وابن رستة في (الأعلاق النفيسة) ص ١٠٥ ط. ليدن سنة ١٨٩١ م. والمقدسي في (أحسن التقاسيم) ص ١٣٣ ط. ليدن سنة ١٨٧٧ م. وابن عساكر في (تاريخ الكبير) ج ٤ ص ٨٠ طبعة روضة الشام سنة ١٣٣٢ هـ.

ونشير نحن إلى دور «السلام العام» في هذه الزيادة والنمو المالي، بالعراق وغيره، فقد كانت الثورات مستمرة تضعف من طاقة البلاد الاقتصادية، الأمر الذي كان ينعكس على الأموال المجموعة في مسارح الثورات ومناطق القتال، وفي مقدمتها أرض العراق..

فلم يضعف العدل أبداً «الدولة» على عهد عمر بن عبد العزيز، ولم ينقص ماليتها لقد ضعفت «دولة» العسف والجور، بل زالت ونقصت «الأموال» المغتصبة، بل انتزعت من مغتصبيها ولكن الروح قد عادت إلى «دولة» العدل، و«الأموال» قد حررت بيد العاملين المنتجين، عرباً كانوا أم من الموالي، مسلمين كانوا أم غير مسلمين

وهذا الحوار الذي دار بين عمر بن عبد العزيز وبين عامل من عماله على الخراج يجسد هذا المعنى الذي نقول دخل العامل على عمر، فسأله:

- كم جمعت من الصدقة؟

- كذا وكذا.. (مبلغاً محدداً)

- فكم جمع الذي قبلك؟

- كذا وكذا (مبلغاً أكبر مما جمعه هو).

- من أين ذلك؟!

- يا أمير المؤمنين، إنه كان يأخذ من الفرس ديناراً، ومن الخادم ديناراً، ومن الفدان خمسة دراهم، وإنك طرحت ذلك كله!

- لا والله، ما ألقيته، ولكن الله ألقاه؟[1]

- لقد نقضت المظالم، وضاعت أعيانها. ولكن العدل، هو الآخر، كانت له ثمار أعظم وأكثر منها!

بل إننا نلمح في فكر عمر بن عبد العزيز السياسي، كرجل دولة، ما يضيف بعداً جديداً، أضافته تجربته إلى مفهوم الدولة، ومكان منصب الخليفة وسلطانه من بينها. فقبل عمر كان الخليفة هو الآمر الناهي، وكان سلطانه هو السلطان الأوحد في جهازها. أما عمر، فلقد عرف تجربته في الشورى ومجلسها أيام كان والياً على المدينة. ولما ولي الخلافة كان له مستشارون يعاونونه في شؤون الدولة، وكانت له بهم اجتماعات منظمة، لها تقاليد مرعية ومقررة. وبعبارة القدماء: «لقد كان له سمار ينظرون في أمور الناس، وكان علامة ما بينه وبينهم إذا أراد القيام أن يقول: إذا شئتم؟»[2] وأيضاً فلقد نظر عمر إلى منصب الخليفة كركن واحد من أركان أربعة تقوم عليها بناء جهاز الدولة، فقال في كتابه إلى عقبة بن زرعة عامل الخراج على خراسان: «إن للسلطان

(١) (طبقات ابن سعد) ج ٥ ص ٢٧٧.
(٢) المصدر السابق. ج ٥ ص ٢٨٢

أركاناً لا يثبت إلا بها:

* فالوالي ركن..
* والقاضي ركن..
* وصاحب بيت المال ركن..
* والركن الرابع أنا[1]..

فهو واحد من الأركان، وليس، كما كان من سبقه، كل الأركان!..

ولعله كان يريد التأكيد على تميز سلطان كل ركن من هذه الأركان كي لا يذوب في الآخر، وخاصة في الركن الرابع! فحرص على أن يذكر الناس ويؤكد لهم أن الخليفة هو «منفذ» للشريعة والقانون، وليس «قاضياً»، لأن القاضي، في جهاز الدولة ركن متميز وسلطة مستقلة عن سلطة «المنفذ» أمير المؤمنين. ففي خطابه الذي حدد فيه، أمام الناس سلطانه وسلطانه، قال: «ألا وإني لست بقاض، ولكني منفذ. ألا لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. إلا أن الرجل الهارب من الإمام الظالم ليس بعاص، ولكن الإمام الظالم هو العاصي!..»[2].

لقد كان رجل دولة، أضاف إلى مفهومها، على عهده، بعداً جديداً، كما كان إمام عدل وانصاف.

---

(١) (تاريخ الطبري) ج ٦ ص ٥٦٨

(٢) (مروج الذهب) ج ٢ ص ١٤٥

وبدأت الدولة تعطي

[أيها الناس من سلفت منكم حاجته، سددنا من حاجته ما قدرنا عليه... حتى يستوي عيشنا وعيشكم... ومن كانت عليه أمانة، لا يقدر على أدائها، فأدلؤها من مال الله. ومن تزوج امرأة فلم يقدر أن يسوق إليها صداقها، فصداقها من مال الله!؟]

عمر بن عبد العزيز

وبعد أن كانت المظالم تثقل كاهل الناس، وجهاز الدولة - (خلفاء وأمراء وولاة وعمالاً) - يستأثرون بالجبايات والضرائب والمكوس والصدقات، تحول جهاز الدولة، بثورة عمر بن عبد العزيز وعدله، إلى مصدر للعطاء، والعطاء المنظم، لإعطاء الهبات والمنح والاقطاعات، كما كان يفعل الذين سبقوه للأنصار والشعراء والمرائين.

وكانت نظرة جهاز الدولة، وعلى رأسه الخليفة، إلى حقوق الناس في المال محكومة بالفلسفة التي قررها عمر، والتي استرشد فيها بروح الإسلام، فلسفة المساواة بين الناس، في حدود الاحتياجات والضرورات والإمكانيات، لا فرق في ذلك بين عربي ومولى، مسلم أو غير مسلم، حاكم أو محكوم.

فعمر يخطب الناس في «خناصرة»[1] مجدداً ومؤكداً فلسفة المساواة هذه فيقول «أيها الناس ... وما يبلغنا أحد منكم حاجته، يسعها ما عندنا، إلا سددنا من حاجته ما قدرنا عليه، ولا أحد يتسع له ما عندنا إلا وددت أنه بدىء بي وبلحمتي الذين يلونني حتى يستوي عيشنا وعيشكم. وأيم الله لو أردت غير هذا من عيش أو عصارة[2] لكان اللسان به ناطقاً ذلولاً عالماً بأسبابه، ولكنه من الله، عز وجل، كتاب ناطق، وسنة عادلة، دل فيهما على طاعته ونهى فيهما عن معصيته»[3]. فمن يرفع إلى الدولة حاجته، يلبيها ما وسعتها الإمكانات، على هدي من الفلسفة التي تستهدف التسوية في العيش بين الناس وبين الخليفة وأهل بيته - «لحمته» - وإن كتاب الله وسنة نبيه يقفان حائلين دون استئثاره وأهله بالعيش الطيب واللين من دون الناس!.

وفرضت الدولة للناس العطاء، وأدخلت على ديوانه الإصلاحات، فعاد ليشمل الثوار الذين حرمهم الخلفاء الأمويون السابقون، وليضم الموالي الذين استبعدوا من قوائمه، وتساوى فيه «العرب والموالي في الرزق والكسوة والمعونة والعطاء»[4].

---

(١) بلدة صغيرة من أعمال حلب، في مجاورة قنسرين من ناحية البادية

(٢) العصارة: طيب العيش ولينه

(٣) (الأغاني) ج ٩ ص ٣٣٨٧

(٤) (طبقات ابن سعد) ج ٥ ص ٢٥٥، ٢٧٧.

وكان عمر بن الخطاب قد جعل لذرية المقاتلين الذين قامت الدولة بسيوفهم عطاء مجددا في الديوان، يتوارثونه. فلما جاء حكم معاوية ضيق نطاق هذا العطاء فأصبح سلاحا بيد الدولة للترغيب والترهيب، فلما حكم عبد الملك بن مروان أوقف هذا العطاء كليه، ولكن عمر بن عبد العزيز أعاد عطاء أبناء المقاتلين وذريتهم، ثانية، إليهم، وحكمت العدالة والمساواة بوزيعه فيهم، كما كان الحال زمن عمر بن الخطاب[1]. ولقد أصبح العطاء، بهذا القرار، عاماً وشاملاً، فالذين بلغوا من العمر خمس عشرة سنة أصبح لهم عطاء المقاتلين، ومن سنهم دون ذلك أصبح لهم عطاء الذرية[2].

وفرضت الدولة فروضاً للمرضى بأمراض مزمنة تعجزهم عن العمل (الزمني) - ولقد زاد بعض الولاة ومنهم صاحب ديوان دمشق - أن ينفق عليهم صدقة، دون أن يجدد لهم في بيت المال حقوقاً واجبة ومقررة ومفروضة، فشكوه إلى عمر بن عبد العزيز، فكتب إليه أن يفرض لهم حقوقاً واجبة، لا مجرد صدقات وإحسانات، وقال له: «إذا أتاك كتابي هذا فلا تعنت الناس ولا تعسرهم ولا تشق عليهم، فإني لا أحب ذلك»[3].

---

(١) (تاريخ الدولة العربية) ص ٢٨٨، ٢٨٩.

(٢) (الخراج) لأبي يوسف ص ١٧٥

(٣) (طبقات ابن سعد) ج ٥ ص ٢٨١

وامتدت الدولة، وبيت مالها، بعطائها إلى الكثير من مجالات «الخدمات» التي تيسر على الناس أمور الحياة. حتى لقد كتب عمر ابن عبد العزيز إلى ولاته وعماله في الأقاليم أن يقيموا «الخانات» (البيوت - الفنادق) - لنزول المسافرين، وأصبح «حقاً» للمسافر أن يقيم على نفقة الدولة بهذه «الخانات» يوماً وليلة، يقدم له فيها الطعام، بل ويتعهدون له، أيضاً، ما يصحبه من دواب! فإذا كان المسافر مريضاً كان حقه الإقامة فيها يومين وليلتين! فإن كان هذا الغريب منقطعاً، أي لا أهل له - (من أبناء السبيل) كان له، فوق إقامته «بالخانات» وإعاشته منها المعونة التي تعينه على الوصول إلى البلد الذي يريد[1]!..

ولقد نظر عمر بن عبد العزيز إلى من تثقل كاهلهم «أمانات» لا يستطيعون الوفاء بها، وإلى من رغب الزواج ولا قدرة له على دفع «الصداق»، فجعل هؤلاء حقاً مقرراً في بيت المال، وكتب إلى عماله على الأقاليم: «ومن كانت عليه أمانة لا يقدر على أدائها فأعطوه من مال الله، ومن تزوج امرأة فلم يقدر أن يسوق إليها صداقها فأعطوه من مال الله!»[2]

ولم تنس الدولة أبناءها الأسرى المحتجزين في القسطنطينية عاصمة الروم البيزنطيين، ففرضت لهم في العطاء، وغيره، ما

---

(١) (تاريخ الطبري) ج ٦ ص ٥٦٧

(٢) (طبقات ابن سعد) ج ٥ ص ٢٧٦

يزيد على أنصبتهم لو كانوا أحراراً، وأعطت نصبتهم هذه لأهلهم وذويهم، ثم بعثت إليهم في الأسر نفقات، تكفي الضرورة، ولا تزيد عليها حتى لا يطمع فيها وتعتصبها «طاغية الروم»! ولقد كتب إليهم، في الأسر، عمر بن عبد العزيز كتاباً قال لهم فيه: «أما بعد فإنكم تعدون أنفسكم أسارى، ولستم أسارى، معاذ الله، أنتم الخيساء في سبيل الله، واعلموا أني لست أقسم شيئاً بين رعيتي إلا خصصت أهلكم بأوفر ذلك وأطيبه! وقد بعثت إليكم خمسة دنانير، خمسة دنانير - (أي لكل أسير) -، ولولا أني خشيت أن ردتكم أن يحبسه عنكم طاغية الروم لردتكم!»

ثم أخبرهم أنه قد بعث من يفاوض الروم على فدائهم جميعاً، ذكوراً وإناثاً، عرباً ومولى، أحراراً ورقيقاً، وأنه سيدفع كل ما يطلبه الروم من فداء: «فأبشروا، ثم أبشروا!»[1]

هكذا بدأ العدل يثمر، وبدأت الدولة تعطي - تعطي خلفاء الله في الأرض - الأمة - من مال الله - مال الأمة - فحق الله، كما قرر الإسلام، هو حق المجتمع - (الأمة) ومن ثم فإن ماله هو مالها، متكافلة متضامنة، وبعبارة عمر بن عبد العزيز، التي خاطب بها الناس: «أيها الناس، إنما هو مالكم، نرده إليكم![2]».

---

(١) الأغاني - ج ٩ ص ٣٣٨٥، ٣٣٨٦

(٢) (طبقات ابن سعد) ج ٥ ص ٢٥٥

وفي هذا العطاء كانت عين الدولة، قبل كل شيء، على الأحق، والأولى، على الفقراء. وهذا هو أحد الفروق الجوهرية بين «عطاء» عمر ودولته الثورية، وبين «عطاء» من سبقه من الخلفاء. فلقد كانوا يمنحون العطاء للأنصار والأعوان وأهل العصبة والمرتبين، ويغدقون العطاء على شعراء المديح والمفاخرة والمدلعة والهجاء للخصوم. أما عمر فقد جعل عطاء دولته، المنظم، لمن هم الأولى والأحق والأكثر احتياجاً..

وقد وفد عليه الشعراء يطلبون عطاياه كي كان صنيعهم مع من سبقوه، فكان يقدم «العامة» في المنح عليه على مشاهير الشعراء، ولما شكا إليه «كثير عزة» (١٠٥ هـ ٧٢٣ م) طول إقامتهم ببابه دون عطاء، وقال:

- يا أمير المؤمنين، طال الثواء، وقلت الفائدة، وتحدثت بحاجتك إياد وفود العرب!..

(أجابه):

- يا كثير، أما سمعت لي قول الله عزّ وجل في كتابه ﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم﴾؟[1] أفمن هؤلاء أنت، يا كثير؟!

---

(١) التوبة ٦٠

وبقد انصم الأحوص، عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عاصم الأنصاري (١٠٥ هـ ٧٢٣ م) ونصيب بن رباح (١٠٨ هـ ٧٢٦ م) إلى كثير وطلبوا أن ينشدوه شعرهم، فطلب إليهم ألا يقولوا إلا حقاً، فإن الله سائلهم عما يقولون! ولما طلبوا منه العطاء، والجوائز، أخبرهم أن لا محل في بيت مال المسلمين لعطاء الشعراء «ما عندي مما أعطيكم، فسطروا حتى يخرج عطائي فأواسيكم منه!».. ولذلك وجد الشاعر (الراجز) دكين بن رجاء (١٠٥ هـ ٧٢٣ م) يبلع لقمة في الصدق ولا جدة عندما يرد على جرير ابن عطية اليربوعي (٢٨ - ١١٠ هـ ٦٤٠ - ٧٢٨ م) عند رجوعه من عند عمر بن عبد العزيز.. فلقد سأل جرير دكين:

- من أين؟... - (فقال):

- من عند من يعطي الفقراء، ويمنع الشعراء![1]

فعلم جرير أنه قدم من عند عمر بن عبد العزيز!

هكذا صنع العدل.. وهكذا تحولت ثورة جهاز الدولة إلى مصدر بر وعطاء بعد أن كان أداة قمع واستلاب! بعد أخذت الدولة تعطي الفقراء بكلتا يديها.. ولقد صدق الشاعر عويف القوافي، عوف بن معاوية بن عفنة (١٠٠ هـ ٧١٨ م) عندما قال لعمر ابن عبد العزيز:

---

(١) (الأغاني) ج ٩ ص ٣٣٧٧، ٣٣٧٨، ٣٣٨٠، ٣٣٨١

أجبني أبا حفص لقيت محمداً
على حوضه مستشرفاً وركابا
فإنت أمرؤ كلتا يديه مفيدة
شمالك خير من يمين سواكا[1]

(١) (تاريخ الطبري) ج ٦ ص ٥٦٦ .

الحقيقة.. الأسطورة

[منسوب - في المأثورات - إلى عمر بن الخطاب قوله - في التنبوء بعمر بن عبد العزيز - « بيت شعري ! من [الأشج] من ولدي ، الذي يملؤها عدلاً كما ملئت جوراً ؟ ! ..]

في ظل حكم بني أمية، قبل خلافة عمر بن عبد العزيز، وأيضاً بعده، كانت أرض الدولة العربية الإسلامية قد ملئت ظلماً وجوراً. وعندما حيل لدعاة العدل وعشاق المساواة والدين يحدوهم بعودة الروح للنهج الإسلامي في الحكم وسياسة الناس أن الطريق أمامهم قد رداد طولاً، أو عدا مسدوداً تحولت آمالهم في العدل وأحلامهم في المساواة إلى أمنية «طوبائية - مثالية» في أن تتولى السماء، بعد أن عجز الثوار، الصنع والبعث لذلك «المهدي المنتظر» «المخلص» للأمة من آلامها، والذي سيملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً؟! والذي ستشهد الأرض في عصره رخاء لا عوز فيه، وأمناً يجعل

الذئب يحرس الغنم، والانسان يضع ذراعه في فم الأسد فلا يصيبه المكروه؟!..

ولقد «حلمت» تيارات فكرية إسلامية عدة بهذا «المهدي المنتظر»، بل وحلمت به قبائل منها التمييز القبلي والعصبية القبلية بالاضطهاد والاجحاف..

فلشيعة الاثني عشرية «مهديها» المنتظر[1]، وللشيعة «الكيسانية»، هي الأخرى «مهديها» المنتظر[2]. وعندما استبعد «البسابون» كلا من «القحطانيين» و«المضريين» و«الكلبيين» من إطار قريش، قريش العصبية والسلطة، وعانت هذه البطون من الاستبعاد والاهمال، حلمت «بالمخلص» و«المهدي»، فكان «القحطاني المنتظر» و«التميمي المنتظر» و«الكلبي المنتظر»[3]! وكانت هذه التيارات، الفكرية والقبلية، تعبّر بحلمها «الطوباوي» هذا عن عشقها للعدل، ذلك العشق الذي جسدته في «أسطورة» المهدي بعد أن عجزت عن وضعه، بالثورة، موضع الممارسة والتحقيق

ولكن ثورة عمر بن عبد العزيز، التي أشعلها من قمة

---

(١) الطوسي، أبو جعفر (تلخيص الشافي) ج ١ ق ١ ص ٩٠، ٩١ طبعة النجف سنة ١٣٨٣ ـ سنة ١٣٨٤ هـ.

(٢) (مروج الذهب) ج ٢ ص ٦١.

(٣) (السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات) ص ١٢١، ١٢٢

السلطة عندما ولي الخلافة، قد حولت «الأحلام» في العدل إلى واقع رآه الناس أو اقتربوا منه إلى حد كبير. ومن هنا تحولت هذه الثورة، وهي «حقيقة»، تحولت في ضمير الأمة وتراثها وتاريخها إلى «أسطورة»! وتحولت فترة حكم هذه الخليفة الصالح بعدل كثير، وهي لم تتعد سنتين وخمسة أشهر وأربعة عشر يوماً، تحولت إلى «صورة مثالية»، بعد أن ارتدت عنه الدولة واعتنقها الخلفاء الذين أعقبوه! . وتحول صاحب هذه الثورة وإمام هذا العدل إلى «مهدي»، جاء فخلص الناس من الآثام وحقق لهم آمالهم، وملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً!..

فعندما كان عمر بن عبد العزيز طفلاً صغيراً حدث له جرح في جبهته، من حافر فرس، والتئم الجرح وبقي أثر «الشج»، فعرف، «بالأشج»، «أشج بني مروان»!

فيما كبر، وحكم، وعدل، تحول «الأشج» إلى أسطورة في ضمير الأمة وذكرياتها، ورؤى مثالية من رؤى التاريخ والتراث. وحمل هذا التراث وذلك التاريخ بالعديد من المأثورات الأسطورية التي يسمت «الأشج بني مروان» هذه بقسمات المتميزة عمن سبقه أو لحقه من الخلفاء.

● فمأثورة تقول: إن عمر بن الخطاب - وهو جد عمر بن عبد العزيز لأمه - قد سماه، قبل ميلاده أكثر من ثلث قرن،

فقال: «بيت شعري! من ذو «الشين» - (الشج) - من ولدي، الذي يملؤها عدلاً كما ملئت جوراً؟!»[1]

● ومأثورة ثانية تقول: إن عبد الملك بن مروان كان يظهر محبة ملحوظة وودّاً زائداً للطفل عمر بن عبد العزيز ولما عاتبه البعض على تقديمه لعمر عن بعض أبنائه قال لمن عاتبه:

- أو لم تعلم لم فعلت ذلك؟!

- لا!..

- إن هذا سيلي الخلافة يوماً، وهو أشج بني مروان الذي يملأ الأرض عدلاً بعد أن تملأ جوراً، فمالي لا أحبه وأدنيه[2]؟!

● ومأثورة ثالثة تقول: إن رجلاً سأل سعيد بن المسيب (١٣ - ٩٤ هـ ٦٣٤ - ٧١٣ م) - وهو من أئمة الفقهاء والعلماء في عصره - وحاوره.

- يا أبا محمد، من المهدي؟

- أدخلت دار مروان؟!

- لا!

---

(١) (طبقات ابن سعد) ج ٥ ص ٢٤٣.

(٢) (الأغاني) ج ٩ ص ٣٣٧٤.

ـ فدخل دار مروان ثم المهدي! (ودخل الرجل دار مروان، ثم عاد ليسأل).

ـ يا أبا محمد، دخلت دار مروان فلم أر أحداً أقول هذا المهدي!..

ـ هل رأيت الأشج، عمر بن عبد العزيز، القاعد على السرير؟!

ـ نعم!

ـ فهو المهدي!! [1]

● ومأثورة رائعة يرويها عالم المعتزلة أبو يحيى مالك بن دينار (١٣١ هـ ـ ٧٤٨ م) تقول:

إن الرعاة الذين يرعون الغنم، بمعزل عن العمران، في رؤوس الجبال، قد ظهرت لهم علامات وخوارق أنبأت بأن الخلافة قد تولاها «عبد صالح»، عندما بويع بها عمر بن عبد العزيز!.. فتساءل الرعاة:

ـ من هذا العبد الصالح الذي قام على الناس؟!

فسألهم الناس في تعجب:

ـ وما علمكم بذلك؟!... (فقالوا):

---

(١) (طبقات ابن سعد) ج ٥ ص ٤٢٥

- به إذ قام على الناس خليفة عدل كفت الذئاب أذاها عن الغنم؟!..

● وتتحدث مأثورة خامسة عن أن الذئاب وكل الوحوش قد استمرت في كف أذاها عن الغنم حتى مات عمر بن عبد العزيز، فعادت إلى الأذى والعدوان من جديد! يروي «موسى بن أعين» فيقول: «كنا نرعى الشاء» بكرمان في خلافة عمر بن عبد العزيز، فكانت الشاء والذئاب والوحوش ترعى في موضع واحد، فبتنا نحن ذات ليلة، إذ عرض الذئب لشاة، فقلنا: ما أرى الرجل الصالح إلا قد مات؟! فنظروا فوجدوه قد مات في تلك الليلة[1].

نعم.. إنها، بمنطق العقل وبراهينه، مأثورات وأساطير ولكنها، ككل المأثورات والأساطير، إبداع شعب وثمار لعبقرية أمة، عبّرت بها عن مكنون معاناتها من الظلم والجور، وعن اللحظة التي امتلكت فيها ميزان العدل وتذوقت ثمراته، وكذلك عن الردة التي أصابتها بعد وفاة عمر بن عبد العزيز! عبرت عن كل ذلك بالمأثورات والأساطير، كما عبرت عنه بالخبر الموثق الذي أودعته صفحات التاريخ.

فالرجل الذي مثل الشهاب المنير في ليل الدولة الأموية قد عاجله أمراء بيته فوضعوا له السم في الشراب قبل أن يعيد

---

(١) المصدر السابق ج ٥ ص ٢٨٥.

الخلافة إلى «الشورى والاختيار»، ويضعها، كما كانت، بيد «أهل الحل والعقد» وقادة الرأي يولونها للأصلح والأقدر والأعدل ممن تتوافر فيهم الشروط[1]. فبعد مرض دام عشرين يوماً صعدت روحه المطمئنة إلى خالقها، وهو في قرية «دير سمعان» - من أعمال حمص بأرض المعرة - في يوم السبت ٢٥ رجب سنة ١٠١ هـ (١٠ فبراير سنة ٧٢٠ م)، قبل أن يبلغ الأربعين من عمره، وبعد حكم لم يزد عن سنتين وخمسة أشهر وأربعة عشر يوماً[2]. ودفن بقبر كان قد اشترى موضعه بدينارين من الراهب الذي يرعى الدير «دير سمعان»[3].

وبمثل السرعة والعزم اللذين قامت بهما ثورة عمر بن عبد العزيز فور وفاة الخليفة الذي سبقه سليمان بن عبد الملك، حدثت الردة عن ثورة عمر وعدله فور تولي يزيد بن عبد الملك للحكم عندما مات عمر بن عبد العزيز؟![4]. فكانت هذه الردة «الحقيقة» التي عبرت عنها «المأثورات والأساطير» عندما قالت: إن الذئاب والوحوش قد عادت لافتراس القطيع، بعد أن كان ذلك الأذى والافتراس قد توقف وامتنع في ظل حكم عمر بن عبد العزيز؟!..

---

(١) (تاريخ الطبري) ج ٦ ص ٥٥٦.

(٢) المصدر السابق ج ٦ ص ٥٦٤، ٥٦٥

(٣) (طبقات ابن سعد) ج ٥ ص ٢٩٩

(٤) ابن خلدون (العبر) ج ٣ ص ٧٦

تلك هي «حقيقة» و«الأسطورة»، بل «الحقيقة - الأسطورية» التي مثلها هذا الخليفة لصالح العادل الثائر في التراث السياسي والاجتماعي للعرب والمسلمين.

ولقد جرع الناس لموته فقد كانوا - كما قال كثير عنه - يودون أن يعطوه نصف أعمارهم حتى يخلد حكمه فيدوم عدله!:

فلو يستطيع المسلمون تقسموا
لك الشطر من أعمارهم غير ندم
فعشت به ما حج لله راكب
فخلد مطيف بالمقام وزمزم
فارسح بها من صفقة لمبايع
وأعظم بها، أعظم بها، ثم أعظم!
فما بين شرق الأرض والغرب كلهم
مناد منادي من فصيح وأعجم
يقول: أمير المؤمنين ظلمتني
فلا أخذ دينار ولا أخذ درهم
ولا بسط كف لامرىء ظلم به
ولا انتقمت منه، طاب، ملء محجم
وبيت فلم تشتم عليه ولم تخف
سريا ولم تتبع مقالة مجرم

وقلت فصدقت الذي قلت بالذي
فعلت فأضحى راضياً كل مسلم[1]

وعندما سمع كثير موت عمر، قال:

أقول لما نعى الناعون لي عمراً
لا يعدل قوام العدل والدين
قد غادر القوم اللحد الذي لحدوا
«بدير سمعان» قسطاس الموازين[2]

هكذا كان عمر بن عبد العزيز. وهكذا كانت ثورته الاجتماعية. وهكذا كان العدل الذي أقامه بين الناس، عندما رد المظالم، وأعاد الثروة العامة إلى الأمة «نهراً أعظم، والناس شربهم فيه سواء!».

* * *

ولكن... من الناس من يقول: كل ذلك حق وصدق وخير. ولكنه مجرد تاريخ وتراث. فمن لنا بمثل عمر بن عبد العزيز؟!. إن العصر قد تغير، والناس مختلفون. فلا أمل ولا رجاء ولا فائدة من استلهام هذه الصفحات التاريخية المشرقة، فضلاً عن الأمل في عودة «عدلها وانصافها» إلى الواقع الذي نعيش فيه!..

---

(١) (الأغاني) ج ٩ ص ٧٨، ٣٣

(٢) (تاريخ الطبري) ج ٦ ص ٥٧٢.

من الناس من يقول ذلك ولكن أصحاب هذا القول يتجاهلون أن هناك قوانين تحكم حركة التطور والصراع في أي مجتمع من المجتمعات، وفي كل المجتمعات، وعلى اختلاف العصور وتعدد الحضارات فعمر بن عبد العزيز، وغيره من أئمة العدل، قد حققوا للناس عدلاً بقدر ما استجابوا لمصالح مجموع الأمة الطامحة إلى رد المظالم واستعادة الحقوق وإقامة الحق والعدل بين الناس. والذين وقفوا، في الصراع الاجتماعي، على النقيض من عمر بن عبد العزيز، قد أصابوا أنفسهم بما أصابها من الجور والظلم بقدر ما استجابوا لمطامع القلة التي شاءت أن تستأثر بحقوق سواد الناس وجهودهم فالذين يبصرون القانون العام، والحقيقة الأساسية، ويدركونها بوعي يقظ، ثم يسلكون السبيل الأقوم لوضعها في ممارسة والفعل والتطبيق، لن يكون عزيزاً عليهم أن يحققوا لمجتمعاتهم من العدل ما حققه لمجتمعه عمر بن عبد العزيز، بل وأكثر مما حققه عمر بن عبد العزيز!

وحتى نؤكد مقولتنا هذه وندعمها، نذكر للذين يعارضون أو يتشككون: أن عمر بن عبد العزيز كان يضع نموذج عدل عمر بن الخطاب مثالاً يستلهمه، ولم يكن يريد إعادة مجتمع عمر ابن الخطاب وتجربته ثانية، لأن التطور قد تجاوز الكثير من واقعها ووقائعها كان يريد عدل عمر بن الخطاب لمجتمع عمر بن عبد العزيز وكان هناك من يتحدث عن استحالة ذلك، لتغير الزمان وتغير الرجال؟! وللرد على

هؤلاء، طلب عمر بن عبد العزيز إلى أحد علماء عصره أن يكتب إليه بسيرة عمر بن الخطاب، للاسترشاد والاستلهام، فكتب إليه بها، وختم كتابه بهذه الكلمات

«إن عمر بن الخطاب كان في غير زمانك، ومع غير رجالك، وإنك إن عملت في زمانك ورجالك بمثل ما عمل به عمر ابن الخطاب في زمانه ورجاله كنت مثل عمر بن الخطاب وأفضل؟!»[1].

فللعدل قانون والمهم هو اكتشافه والوعي به والأهم هو السعي لتطبيقه وإقامة صرحه وسلطانه وعند ذلك، وبالرغم من اختلاف الزمان والرجال، يتحقق العدل الذي استهدفه الأولون ويحلم به المعاصرون.

فهل من راغب في هذه المسيرة؟ ومن ذا الذي يحمل سلاحه ويسعى على هذا الطريق؟ حتى يكون مثل - بل وربما أفضل - من عمر بن عبد العزيز؟؟!!

---

(١) (طبقات ابن سعد) ج ٥ ص ٢٩٢

وأخيراً...

هكذا تكلم عمر بن عبد العزيز

ولأن ... وبعد أن عرضنا سيرة هذا الرجل الصالح، والإمام العادل، والشهاب الذي أضاء في ليل الدولة الأموية فمنح أمة محمد، ﷺ، صفحة من الفكر والتطبيق يرضى عنها الله ويسعد بها الناس ..

الآن ... قد يكون مفيداً، وجديداً أن نضع بين يدي الباحث والقارىء تلك النصوص التي بقيت مسائره، والكلمات التي ظلت متفرقة من آثار ذلك الرجل الصالح والضمير المرهف: عمر بن عبد العزيز...

إن حكام تلك العصور، وخلفاء تلك الأزمنة لم يؤلفوا الكتب ولم يحرروا الرسائل ... وباستثناء الإمام علي بن أبي طالب ـ لتعظيم الشيعة له ـ فلم يحدث أن جمع أحد الكتب والرسائل والخطب والحكم التي أثمرتها حياة خليفة من هؤلاء الخلفاء ... ولقد ظلت آثار هؤلاء الرجال مبعثرة في عشرات المصادر والمراجع من كتب التراث...

وفي يتعلق بعمر بن عبد العزيز، فنحن لا نزعم أن هذا الفصل من فصول هذا الكتاب قد استقصى كل ما هو منسوب إليه في كتب التراث، ولكنا قد جمعنا فيه ما تناثر في المصادر التي رجعنا إليها ونحن نكتب هذا الكتاب، وهي أهم المصادر التي عرضت لسيرة هذا الخليفة العادل ولتاريخ المسلمين وفكرهم وحضارتهم في العصر الذي عاش فيه.

لقد مات عمر بن عبد العزيز وهو في الأربعين من عمره ولم تتعد سنوات حكمه العامين إلا قليلاً، ولكنه في هذا الرمن القليل:

● اقترب كثيراً، وقرب إليه الكثير من أئمة عصره، فلاسفة وقراء وفقهاء ومؤرخين.

● وحام حوله أبرز شعراء العصر وأعظمهم، فتركوا - لعدله وصلاحه - لمديح الكاذب، والمجون، والسافلات، وقالوا فيه وفي عدله شعراً ينتصر للحق والعدل، وحاء شعرهم هذا شهادة بقاء لشعر الشعراء المؤمنين الذين استثناهم القرآن من الشعراء والغائمين في الضلالات «والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا..»[1]..

---

(١) الشعراء: ٢٢٤ - ٢٢٧

● وهو قد ناظر الخصوم وحاور الأقران والأنداد

● كما فاض عقله الراجح بالحكمة، تفطرت عن فيه إلى حيث حفظها الناس، وتناقلتها كتب التراث حكماً ومأثورات تروى، حتى لقد ظل العقل العربي المسلم يقف أمامها جاشعاً متأملاً، ومستلهماً منذ عصره حتى هذا العصر الذي نعيش فيه!

● وهو قد خاطب الناس وخطبهم ووعظهم، فكان يبكيهم، بل ويبكي قبلهم!..

● كما فرضت عليه شؤون الحكم وسياسة الدولة ورعاية الرعية أن يكتب العديد من الرسائل إلى العمال والولاة والأعوان. ولم تكن مكاتباته ومراسلاته «كتبه الديوانية» أشباه كتب محفوظة، بل كانت أثراً من آثاره هو أولاً وقبل كل شيء بل لقد أثر عنه أنه كان كثير الكتابة بيده هو، لا بفكره فقط، لهذه الكتب والمراسلات[1]

فإذا كنا قد جعلنا من هذا الفصل صفحة سطرناها بنصوص عمر بن عبد العزيز ومأثوراته فيها، ولا شك، المرة الأولى التي يصنع فيها لهذا الرجل الصالح والإمام العادل

---

(١) «العقد الفريد» ج ٤ ص ١٦٥.

فصل مجموع في كتاب كما أنها ستكون بالقطع، إطاراً لعصره، وتجسيداً لمجتمعه، وشاهداً على العلاقات التي صنعها، والتي أحاطت بهذا الخليفة العظيم

فمنذ اليوم الذي أمضى فيه الخليفة الذي سبق عمر بن عبد العزيز، سليمان بن عبد الملك، ذلك العهد الذي تولى عمر فيه خلافة المسلمين. وهذي كانت نصه

«بسم الله الرحمن الرحيم.

هذا كتاب من عبد الله سليمان، أمير المؤمنين، لعمر بن عبد العزيز بن مروان . .

إني قد وليتك الخلافة بعدي ومن بعده يزيد بن عبد الملك.

فاسمعوا له وأطيعوا واتقوا الله، ولا تختلفوا فيطمع فيكم»[1]

منذ ذلك اليوم وحتى وفاته أعطى عمر، مع بعد، وإصلاح، تراثاً في ميدان الكلمة، جاء وثيقة فكرية لهذا العدل والصلاح. .

---

(١) «تاريخ الطبري» (ج ٢ ص ٥٥١)

ونحن هنا ندع الميدان لعمر بن عبد العزيز، ونفرد هذه الصفحات لمأثوراته، ولبعض المأثورات التي جاءت جواباً لكتبه وأسئلته، أو التي حسدت مواقفه وعلاقاته مع الذين اقتربوا منه أو قربهم إليه أو استعان بهم على انجاز ما أنجز من عدل وصلاح.. فهنا سيجد القارىء:

١ ـ رسائل ومواعظ قدمها نفر من أئمة عصره إليه

٢ ـ وبعضاً من أشعار الشعراء الذين قامت بينهم وبينه علاقة تميزت عن تلك التي قامت بينهم وبين الخلفاء السابقين وقالوا فيه شعراً تميز هو الآخر عن مدائحهم لمن سبقه من الخلفاء.

٣ ـ ومناظرات لهذا الخليفة الصالح مع خصوم الدولة، عكست نهجه الجديد في الفكر والتطبيق

٤ ـ وخطباً ومواعظ كانت ولا تزال آية من آيات الفكر الديني الراقي والمخلص والمتبتل والعميق.

٥ ـ وصياغات قانونية تشريعية، هي نموذج لاجتهاد عمر بن عبد العزيز في فقه الاسلام

٦ ـ وكتباً ومراسلات بعث بها إلى الولاة والعمال في الأمصار والأقاليم.

٧ ـ ومحاورات بينه وبين بعض أهله وخاصة رجاله ونفر من زواره.

٨ وأخيراً كلماته في الحكمة تلك التي كشفت تجربته فجاءت قطعة من الفلسفة المذهبة، والمذهب الممزوج بالحكمة .

إنها صفحات يتحدث فيها، مباشرة، عمر بن عبد العزيز ويتجسد في سطورها العصر الذي عاش فيه، والتجربة الصالحة التي صنعها في تراث وحضارتنا هذا الشهاب الذي لمع في ليل الدولة والأسرة الأموية، والذي ما زال حتى اليوم لامعاً في ليل هذه الأمة، يستنهض همم عشاق العدل سوره الذي يكاد، لو تأملنا، أن يطمس الكثير، ويكشف عن الكثير ويشير علينا بالكثير؟!

- ١ -

عندما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة كتب إلى الحسن البصري - وكان يعده سيد التابعين - يطلب منه أن يكتب إليه بصفة الإمام العادل فكتب إليه الحسن

أما بعد، يا أمير المؤمنين، فإن الله جعل الإمام العادل قوام كل مائل، وقصد كل جائر، وصلاح كل فساد، وقوة كل ضعيف، ونصفة كل مظلوم، ومفزع كل ملهوف

والإمام العادل، يا أمير المؤمنين، كالراعي الشفيق على إبله، الرفيق بها، الذي يرتاد لها أطيب المراعي، ويذودها عن

مرائع الهلكة، وتحميها من السباع، ويكفها من أذى الحر والقر.

والإمام العادل، يا أمير المؤمنين، كالأب الحاني على ولده، يسعى لهم صغاراً، ويعلمهم كباراً، يكتسب لهم في حياته، ويدخر لهم بعد مماته.

والإمام العدل يا أمير المؤمنين، كالأم الشفيقة البرة الرفيقة بولدها، حملته كرهاً، ووضعته كرهاً، وربته طفلاً، تسهر لسهره، وتسكن لسكونه، ترضعه تارة وتفطمه أخرى، وتفرح بعافيته، وتغتم بشكايته.

والإمام العادل يا أمير المؤمنين، وصي اليتامى، وخازن المساكين، يربي صغيرهم، ويمون كبيرهم

والإمام العدل، يا أمير المؤمنين، كالقلب بين الجوارح، تصلح الجوارح بصلاحه، وتفسد بفساده

والإمام العدل، يا أمير المؤمنين، هو القائم بين الله وعباده، يسمع كلام الله ويسمعهم، وينظر إلى الله ويريهم، وينقاد إلى الله ويقودهم.

فلا تكن، يا أمير المؤمنين، فيما ملكك الله، عز وجل، كعبد ائتمنه سيده، واستحفظه ماله وعياله، فبدد المال وشرد العيال، فأفقر أهله وفرق ماله

واعلم، يا أمير المؤمنين أن الله أنزل الحدود ليزجر بها عن الخبائث والفواحش، فكيف إذا أتاها من يليها؟ وإن الله أنزل القصاص حياة لعباده، فكيف إذا قتلهم من يقتص لهم؟!

واذكر، يا أمير المؤمنين، الموت وما بعده، وقلة أشياعك عنده، وأنصارك عليه، فتزود له وما بعده من الفزع الأكبر

واعلم، يا أمير المؤمنين، أن لك منزلاً غير منزلك الذي أنت فيه، يطول فيه ثواؤك، ويفارقك أحباؤك، يسلمونك في قعره فريداً وحيداً، فتزود له ما يصحبك «يوم يفر المرء من أخيه، وأمه وأبيه، وصاحبته وبنيه»[1].

واذكر يا أمير المؤمنين «إذا بعثر ما في القبور، وحصل ما في الصدور»[2]، فالأسرار ظاهرة، والكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

فالآن، يا أمير المؤمنين، وأنت في مهل قبل حلول الأجل، وانقطاع الأمل، لا تحكم، يا أمير المؤمنين، في عباد الله بحكم الجاهلين، ولا تسلك بهم سبيل الظالمين، ولا تبسط المستكبرين على المستضعفين، فإنهم لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة، فتبوء بأوزارك وأوزار مع أوزارك، وتحمل أثقالك وأثقالاً مع أثقالك ولا يعرنك الذين يتنعمون بما فيه بؤسك،

---

(١) عبس ٣٤ ـ ٣٦

(٢) العاديات: ٩ ـ ١٠

ويأكلون الطيبات في ديارهم بادهاب طيباتك في حرمتك. ولا تنظر إلى قدرتك اليوم، ولكن انظر إلى قدرتك غداً وأنت مأسور في حبائل الموت وموقوف بين يدي الله في مجمع من الملائكة والنبيين والمرسلين، وقد عنت الوجوه للحي القيوم

يا، يا أمير المؤمنين، وإن لم أبلغ بعظي ما بلغه أو نهي من قبلي، فلم آلك شفقة ولا نصحاً، فأنزل كتابي إليك كمداوي حسمه يسقيه الأدوية المكروهة لما يرجو به في ذلك من العافية والصحة.

والسلام عليك، يا أمير المؤمنين، ورحمة الله وبركاته[1]

- ٢ -

وكتب الحسن البصري إلى عمر بن عبد العزيز

من الحسن بن أبي الحسن إلى عمر بن عبد العزيز، أمير المؤمنين

أما بعد فكأنك بالدنيا لم تكن، وكأنك بالآخرة لم تزل!

فجاءه رد عمر بن عبد العزيز:

بسم الله الرحمن الرحيم.

---

(١) والعقد الفريد (ج ١ ص ٣٤ - ٣٦)

أما بعد، فإنك لست بأول من كتب عليه الموت، وقد مات، والسلام!

- ٣ -

وقام محمد بن كعب القرظي بين يدي عمر بن عبد العزيز، فقال:

إنما الدنيا سوق من الأسواق، فمنها خرج الناس بما ينفعهم وبما يضرهم، وكم من قوم قد غرهم مثل الذي أصبحت فيه حتى أتاهم الموت فاستوعبهم، فخرجوا من الدنيا مرملين، لم يأخذوا لما أحبوا من الآخرة عدة، ولا لما كرهوا جنة[1]، وأقسم ما جمعوا من لم يحمدهم، وصاروا إلى من لا يعذرهم

فانظر الذي تحب أن يكون معك إذا قدمت، فقدمه بين يديك حتى تخرج إليه، وانظر الذي تكره أن يكون معك إذا قدمت، فابتع به البدل حيث يجوز البدل

ولا تذهبن إلى سلعة قد بارت على غيرك ترجو جوازها عنك

يا أمير المؤمنين، افتح الأبواب، وسهّل الحجاب، وانصر المظلوم[2]!

---

(١) بضم الجيم وفتح النون مشددة - أي خصب وعدة ووقاية

(٢) «عيون الأخبار» ج ٢ ص ٣٤٣

- ٤ -

وقال محمد بن كعب القرظي لعمر بن عبد العزيز

إن فيك عقلاً، وإن فيك جهلاً، فداو بعض ما فيك ببعض! واحذر من الاخوان من كان ذا معلاة[1] في الدين وبغية في الحق، ولا تؤاخ منهم من تكون مرتبتك عنده على قدر حاجته إليك، فإذا قضى حاجته منك ذهب ما بينك وبينه وإذا عرست عرساً من المعروف فلا تبغين أن تحسن تربيته[2].

- ٥ -

ولما توفي عمر بن عبد العزيز الخلافة رسل إلى سالم بن عبد الله، ومحمد بن كعب القرظي، فدخلا عليه، فقال لهما أشيرا علي.

- فقال له سالم: اجعل الناس أباً واحداً وابناً، فبر أباك، واحفظ أخاك، وارحم ابنك.

- وقال محمد بن كعب: أحب للناس ما تحب لنفسك، وأكره لهم ما تكره لنفسك، واعلم بأنك لست أول خليفة يموت؟!(3).

---

(١) علو وشرف

(٢) «عيون الاخبار» ج ٣ ص ٤.

(٣) «العقد الفريد» ج ١ ص ٤٠

- ٦ -

ودخل عليه، عندما ولي الخلافة، خالد بن عبد الله القسري، فقال مهنئاً:

- يا أمير المؤمنين، من تكون الخلافة قد زانته فأنت قد زنتها، ومن تكون شرفته فأنت قد شرفتها، وأنت كما قال الشاعر:

وإذا الـدر زان حسـن وجـوه
كـان لـلدر حسـن وجهـك زينـا

- فقال عمر بن عبد العزيز: اعطي صاحبكم مقولاً، ولم يعط معقولاً[1]!..

واستقبل يوماً وفداً من أهل العراق، فأبصر في الوفد شاباً يتأهب للكلام، فقال عمر:

- اكبروا؟!..

- فقال الشاب: يا أمير المؤمنين، إنه ليس بالسن، ولو كان الأمر كذلك لكان في المسلمين من هو أسن منك!

- صدقت، رحمك الله، تكلم!..

- يا أمير المؤمنين، أنا لم نأتك رغبة ولا رهبة، أما الرغبة

---

(١) المصدر السابق - ج ٢ ص ١٣٤.

فقد دخلت علينا منازلنا، وقدمت علينا بلادنا، وأما الرهبة فقد أمننا الله بعدلك من جورك!

- من أنتم؟!.

- وفد الشكر!

فنظر محمد بن كعب القرظي - وكان حاضراً - إلى وجه عمر يتهلل، فقال: يا أمير المؤمنين، لا تغلبن جهل القوم بك معرفتك بنفسك! فإن ناساً خدعهم الثناء، وغرهم شكر الناس فهلكوا، وأنا أعيذك بالله أن تكون منهم!

فألقى عمر رأسه على صدره؟![1]..

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الحسن البصري:

جمع لي أمر الدنيا، وصف لي أمر الآخرة

فأجابه الحسن البصري:

إنما الدنيا حلم، والآخرة يقظة، والموت متوسط، ونحن في أضغاث أحلام: من حاسب نفسه ربح، ومن غفل عنها خسر، ومن نظر في العواقب نجا، ومن أطاع هواه ضل، ومن حلم غنم، ومن خاف سلم، ومن اعتبر أبصر، ومن أبصر فهم، ومن فهم علم، ومن علم عمل.

فإذا ذللت فارجع، وإذا ندمت فاقلع، وإذا جهلت فاسأل، وإذا غضبت فأمسك

---

(١) المصدر السابق. ج ٢ ص ١٤٠، ١٤١.

وعلم أن أفضل الأعمال ما أكرهت النفوس عليه!
وإن فيما أمرك الله به شغلاً عما نهاك عنه. والسلام[1]

- ٩ -

ودخل كثير عزة على عمر بن عبد العزيز، واستأذنه في الإنشاد:

- يا أمير المؤمنين، أتأذن لي في الإنشاد؟

- نعم، ولا تقل إلا حقاً..

فأنشده

وليت فلم تشتم علياً ولم تخف
بريئاً ولم تقبل إشارة مجرم
وصدقت بالفعل المقال مع الذي
أتيت فأمسى راضياً كل مسلم
ألا إنما يكفي الفتى بعد ريعه
من الأود النادي ثقاف المقوم
وقد لبست لبس الهلوك ثيابها
تراءى لك الدنيا بكف ومعصم
وتومض أحياناً بعين مريضة
وتبسم عن مثل الجمان المنظم

(١) المصدر السابق ج ٣ ص ١٥٢.

فأعرضت عنها مشمئزاً كأنما
سقتك مدوفاً[1] من سمام وعلقم
وقد كنت في أجيالها في ممنع
ومن بحرها في مزبد موج مفعم
وما زلت تواقاً إلى كل غاية
بلغت بها أعلى البناء المقوم
فلما أتاك الملك عفواً ولم يكن
لطالب دنيا بعده من تكلم
تركت الذي يفنى وإن كان مونقاً
وآثرت ما يبقى برأي مصمم
وأصررت بالتقى وشمرت للذي
أمامك في يوم من الهول مظلم
ومالك إذ كنت الخليفة مانع
سوى الله من مال رغيب ولا دم
سما لك هم في الفؤاد مؤرق
بلغت به أعلى المعالي بسلم
فما بين شرق الأرض والغرب كلها
مناد ينادي من فصيح وأعجم
يقول: أمير المؤمنين ظلمتني
بأخذ الدينار ولا أخذ درهم

---

(١) المدوف: المخلوط

ولا بسط كف لامرىء غير مجرم
ولا السفك منه ظالماً ملء محجم
ولو يستطيع المسلمون لقسموا
لك الشطر من أعمارهم غير ندم
فعشت به ما حج لله راكب
مغذ مطيف بالمقام وزمزم
فأربح بها من صفقة لمبايع
وأعظم بها أعظم بها ثم أعظم

- ١٠ -

ودخل الأحوص على عمر بن عبد العزيز، واستأذنه في الإنشاد، فقال له:

- قل، ولا تقل إلا حقاً..

فأنشد:

وما الشعر إلا حكمة من مؤلف
بمنطق حق أو بمنطق باطل
فلا تقبلن إلا الذي وافق الرضا
ولا ترجعنا كالنساء الأرامل
رأيناك لم تعدل عن الحق يمنة
ولا يسرة فعل الظلوم المخاتل

(١) «العقد الفريد» ج ٢ ص ٨٨، ٨٩ و«الأغاني» ج ٩ ص ٣٣٧٨، ٣٣٧٩

ولكن أحدث الحق جهدك كله
ونقفو مثال الصالحين الأوائل
فقلنا ولم نكذب بما قد بدا لنا
ومن ذا يرد الحق من قول قائل
ومن ذا يرد السهم بعد مضائه
على فوقه إذ عار[1] من نزع نابل
ولولا الذي عودتنا خلائف
عطاريف كانوا كالليوث السواسل
لما وجدت شهراً برحلي شملة[2]
تقد متون البيد بين الرواحل
ولكن رجوت منك مثل الذي به
حبينا زماناً من ذويك الأوائل
فإن لم يكن للشعر عندك موضع
وإن كان مثل الدر من نظم قائل
وكان مصيباً صادقاً لا يعيبه
سوى أنه يبني بناء المنازل
فإن لنا قربى ومحض مودة
وميراث آباء مشوا بالمناصل
فذادوا عدو السلم عن عقر دارهم
وأرسوا عمود الدين بعد التمايل

---

(١) السهم العائر هو الذي لا يعرف مصدره
(٢) شملة ـ بكسر الشين والميم وفتح اللام مشددة أي سريعة

وقبلك ما أعطى الهنيدة[1] حلة
على الشعر كعباً من سديس وبازل
رسول الإله المستضاء بنوره
عليه سلام بالضحى والأصائل
فكل الذي عددت يكفيك بعضه
وبلك خير من بحور السوائل[2]

وقال فيه الشاعر عتبة بن شماس:

ان أولى بالحق في كل حق
ثم أحرى بأن يكون حقيقا
من أبوه عبد العزيز بن مروان
ومن كان جده الفاروقا
رددت أموالنا علينا وكانت
في ذرا شاهق تفوق الأنوقا[3]

- ١٢ -

ودخل جرير على عمر بن عبد العزيز، واستأذنه في الإنشاد، فقال له:

---

(١) الهنيدة هي المائة من الابل والسديس، من الابل، هي ما كانت في الثامنة من عمرها، والبازل منها ما بلغت التاسعة وكعب هو الشاعر كعب بن زهير.

(٢) «العقد الفريد» ج ٢ ص ٨٩ - ٩١ و«الأغاني» ج ٩ ص ٣٣٧٩، ٣٣٨٠

(٣) «العقد الفريد» ج ٥ ص ٢٩١ «والأنوق هو العقاب»

ـ اتق الله يا جرير، ولا تقل إلا حقاً..

فأنشد يقول:

كم باليمامة من شعثاء أرملة
ومن يتيم ضعيف الصوت والنظر
ممن بعدك تكفي فقد والده
كالفرخ في العش لم ينهض ولم يطر
يدعوك دعوة ملهوف كأن به
خبلا من الجن أو مسا من البشر
خليفة الله ماذا تأمرن بنا
لسنا إليكم ولا في دار منتظر
ما زلت بعدك في هم يؤرقني
قد طال في الحي اصعادي ومنحدري
لا ينفع الحاضر المجهود باديب
ولا يعود لنا باد على حضر
إنا نرجو إذا ما الغيث أخلفنا
من خليفة ما نرجو من المطر
نال الخلافة إذ كانت له قدراً
كما أتى ربه موسى على قدر
هذي الأرامل قد قضيت حاجتها
فمن لحاجة هذا الأرمل الذكر[1]

(١) «العقد الفريد» ج ٢ ص ٩٥، ٩٦

ويروى أنه - أي جرير - دخل عليه، مندوباً عن أهل الحجاز، فاستأذنه في الإنشاد، فقال عمر

- مالي وللشعر يا جريري؟ إني نفي شغل عنه

- يا أمير المؤمنين، إنها رسالة عن أهل الحجاز

- فهاتها إذن..

فأنشد:

كم من ضرير أمير المؤمنين لدى
أهل الحجاز دهاة البؤس والضرر
أصابت السنة الشهباء ما ملكت
يمينه فنجاه الجهد والكبر
ومن قطيع الحشا عاشت مخبأة
ما كانت الشمس تلقاها ولا القمر
لما اجتلتها صروف الدهر كارهة
قامت تنادي بأعلى الصوت: يا عمر[1]

ولقد قال جرير يرثي عمر بن عبد العزيز

ينعي النعاة أمير المؤمنين لنا
يا خير من حج بيت الله واعتمر
حملت أمراً عظيماً فاضطرب له
وقمت فيه بأمر الله يا عمرا

(١) المصدر السابق، ج ٢ ص ٨٤

فالشمس طالعة ليست بكاسفة
تبكي عليك نجوم الليل والقمر[1]

- ١٥ -

عندما تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة دخل عليه السدي، إسماعيل بن عبد الرحمن (١٢٨ هـ)، وكان من خاصته، ودار بينهما حوار، بدأه عمر:

- أسرك ما وليت، أم ساءك؟..

- سرني للناس، وساءني لك

إني أخاف أن أكون قد أوبقت نفسي!

- ما أحسن حالك إن كنت تخاف!..

- عظني.

- يوما دم أخرج من الجنة بخطيئة واحدة؟![2]

- ١٦ -

ودخلت عليه عمته فاطمة بنت مروان تريد جدالته كي يعدل عن مصادرته أموال أمراء بني أمية، التي اعتبرها مظالم وأعادها إلى بيت مال المسلمين. ودار بينهما وبينه هذا الحوار الذي بدأته

- إنه قد عناني أمر لا بد من لقائك فيه.

تكلمي يا عمة، فأنت أولى بالكلام، لأن الحاجة لك

---

(١) «العقد الفريد» ج ٣ ص ٢٨٦.

(٢) «مروج الذهب» ج ٢ ص ١٤٤

ـ تكلم أنت يا أمير المؤمنين!..

إن الله، تبارك وتعالى، بعث محمداً، ﷺ، رحمة، لم يبعثه عذاباً، إلى الناس كافة، ثم اختار له ما عنده، فقبضه إليه، وترك للناس نهراً شربهم فيه سواء. ثم قام أبو بكر، فترك النهر على حاله. ثم ولي عمر، فعمل على عمل صاحبه. فلما ولي عثمان اشتق من النهر نهراً. ثم ولي معاوية فشق منه الأنهار. ثم لم يزل ذلك النهر يشق منه يزيد، ومروان، وعبد الملك، والوليد، وسليمان، حتى أفضى الأمر إلي. وقد يبس النهر الأعظم. ولن يروى أصحاب النهر حتى يعود إليهم النهر الأعظم إلى ما كان عليه!

قد أردت كلامك ومذاكرتك. فأما إذا كانت هذه مقالتك فلست بذاكرة لك شيئاً أبداً؟!(1).

ـ ١٧ ـ

ونظر عمر إلى نفر من بني أمية، وحاورهم قائلاً:

إني أرى رقاباً سترد إلى أربابها. أدوا ما في أيديكم من حقوق الناس، ولا تلجئوني إلى ما أكره، فأحملكم على ما تكرهون!

ـ

ـ أجيبوني!

فقال رجل منهم:

---

(1) «الأغاني» ج ٩ ص ٣٣٧٥، ٣٣٧٦

ـ والله لا نخرج من أموالنا التي صارت إلينا من آبائنا، فنفقر أبناءنا ونكفر آباءنا، حتى تزيل رؤوسنا أجسادنا!

ـ أما والله لولا أن تستعينوا علي بمن أطلب هذا الحق له لأضرعت خدودكم عاجلاً، ولكني أخاف نفسه، ولئن أبقاني الله لأردن إلى كل ذي حق حقه، إن شاء الله![1]

ـ ١٨ ـ

في بيت عمر بن عبد العزيز «بخناصرة» دارت المناظرة بينه وبين مندوبين عن ثوار الخوارج الذين تزعمهم بالجزيرة شوذب الخارجي.. ولقد بدأ عمر الحوار:

أخبراني ما الذي أخرجكم عن حكمي هذا؟ وما نقمتم علي؟

ـ إنا والله ما نقمنا عليك سيرتك، وتحريك العدل والإحسان إلى من وليت، ولكن بيننا وبينك أمر إن أعطيناه فنحن منك وأنت منا، وإن منعتناه فلست منا ولسنا منك

ـ وما هو؟

ـ رأيناك خالفت أهل بيتك وسميتها مظالم وسلكت غير طريقهم، فإن زعمت أنك على هدى وهم على ضلال فاتبعهم وأبرأ منهم، فهذا الذي يجمع بيننا وبينك أو يفرق

---

(١) «العقد الفريد» ج ٤ ص ٤٣٧

- إني قد علمت أنكم لم تخرجوا مخرجكم هذا لطلب الدنيا ومتاعها، ولكنكم أردتم الآخرة فأخطأتم سبيلها، وإني سائلكم عن أمر، فبالله أصدقاني فيه مبلغ علمكم.

- نعم.

- أخبراني عن أبي بكر وعمر، أليسا من أسلافكما، ومن تتوليان وتشهدان لهما بالنجاة؟

- اللهم نعم.

- فهل علمتما أن أبا بكر حين قبض رسول الله ﷺ، فارتدت العرب قاتلهم فسفك الدماء وأخذ الأموال وسبى الذراري..؟

- نعم.

- فهل علمتم أن عمر قام بعد أبي بكر فرد تلك السبايا إلى عشائرها؟

- نعم.

- فهل برئ عمر من أبي بكر؟ أو تبرؤون أنتم من أحد منهما؟

- لا.

- فأخبراني عن أهل النهروان، أليسوا من صاحبي أسلافكم، وممن تشهدون لهم بالنجاة؟

- نعم

فهل تعلمون أن أهل الكوفة حين خرجوا كفوا أيديهم، فلم يسفكوا دماً، ولم يخيفوا أمناً، ولم يأخذوا مالاً؟

- نعم

- فهل علمتم أن أهل البصرة حين خرجوا مع مسعر بن فديك استعرضوا الناس يقتلونهم، ولقوا عبد الله بن خباب بن الأرت، صاحب رسول الله ﷺ، فقتلوه وقتلوا جاريته، ثم قتلوا النساء والأطفال، حتى جعلوا يلقونهم في قدور الأقط[1] وهي تفور؟

- قد كان ذلك.

فهل برىء أهل الكوفة من أهل البصرة؟

- لا.

- فهل يبرؤون من إحدى الفئتين؟

- لا.

- أفرأيتم الدين، أليس هو واحد؟ أم الدين اثنان؟

- بل واحد.

فهل يمنعكم منه شيء يعجزني؟

---

(١) طعام يتخذ من اللبن المخيض [illegible] المتجمد بعد صحة

- لا

- فكيف وسعكم أن توليتم أبا بكر وعمر، وتولى كل واحد منهما صاحبه، وتوليتم أهل الكوفة والبصرة، وتولى بعضهم بعضاً، وقد اختلفوا في أعظم الأشياء: الدماء، والفروج، والأموال، ولا يسعني إلا لعن أهل بيتي والبراءة منهم؟! أو رأيت أن لعن أهل الذنوب فريضة لا بد منها؟! فإن كان ذلك فمتى عهدك بلعن فرعون، وقد قال: أنا ربكم الأعلى؟!

- ما أذكر أني لعنته!

- ويحك! أيسعك ألا تلعن فرعون، وهو أخبث الخلق، ولا يسعني إلا أن ألعن أهل بيتي والبراءة منهم ويحكم! إنكم قوم جهال أردتم أمراً فأخطأتموه، فأنتم تردون على الناس ما قبل منهم رسول الله ﷺ بعثه الله إليهم وهم عبدة أوثان، فدعاهم إلى أن يخلعوا الأوثان، وأن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، فمن قال ذلك حقن بذلك دمه، وأحرز ماله، ووجبت حرمته، وأمن به عند رسول الله ﷺ، وكان أسوة المسلمين، وكان حسابه على الله. أفلستم تلقون من خلع الأوثان، ورفض الأذنان، وشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، تستحلون دمه وماله، ويلعن عندكم، ومن ترك ذلك وأباه من اليهود والنصارى وأهل الأذنان فتحرمون دمه وماله، ويأمن عندكم؟!

ما سمعت كاليوم أحداً أبين حجة، ولا أقرب مأخذاً أو

أنا فأشهد أنك على الحق، وإني بريء ممن بريء منك ... ما أحسن ما قلت ووصفت ... لكن أخبرنا عن يزيد بن عبد الملك، لم تقره خليفة بعدك؟!

ـ صيره غيري!

ـ أفرأيت لو وليت مالاً لغيرك، ثم وكلته إلى غير مأمون عليه، أفتراك كنت أديت الأمانة إلى من ائتمنك؟!

ـ انظراني ثلاثاً!

ـ وأنا أيضاً لا أفتات على الناس. أصحابنا ـ بأمر حتى ألقاهم بما ذكرت، وأنظر حجتهم

ـ أنت وذاك[1]..

ومن خطب عمر بن عبد العزيز.

أيها الناس والله ما سألت الله هذا الأمر قط في سر ولا علانية والله ما أردتها ولا تمنيتها فمن كان كارهاً لشيء مما وليته فالآن

أيها الناس أصلحوا سرائركم تصلح لكم علانيتكم، وأصلحوا آخرتكم تصلح دنياكم، وإن امرأ ليس بينه وبين آدم أب حي لمغرق في الموت.

---

(١) «العقد الفريد» ج ٢ ص ٤٠١ ـ ٤٠٣ و«تاريخ الطبري» ج ٦ ص ٥٥٦

أيها الناس إنه ليس بعد نبيكم نبي، ولا بعد الكتاب الذي أنزل عليه كتاب. إلا أن ما أحل الله حلال إلى يوم القيامة، وما حرم الله حرام إلى يوم القيامة، إلا أني لست بقاض ولكني منفذ. إلا أني لست بمبتدع ولكني متبع، إلا أنه ليس لأحد أن يطاع في معصية الله، إلا أني لست بخيركم ولكني رجل منكم غير أني أثقلكم حملاً. اتقوا الله وأعطوا الحق من أنفسكم، وردوا المظالم، فإني والله ما أصبحت لي موجدة على أحد من أهل القبلة إلا موجدة على ذي إشراف حتى يرده الله إلى قصد[1]

- ٢٠ -

ومن خطبه:

إن لكل سفر زاداً لا محالة، فتزودوا من دنياكم لآخرتكم بالتقوى، وكونوا كمن عاين ما أعد الله له من ثوابه وعقابه، فترهبوا وترغبوا، ولا تنطوين عليكم الأمد فتقسو قلوبكم، وتنقادوا لعدوكم، فإنه، والله، ما بسط أمل من لا يدري لعله لا يصبح بعد إمسائه، أو يمسي بعد إصباحه، وربما كانت بين ذلك خطرات المنايا، وإنما يطمئن إلى الدنيا من أمن عواقبها،

---

(١) «العقد الفريد» ج ٤ ص ٤٣٣، ٩٢ و«طبقات ابن سعد» ج ٥ ص ٢٥٠، ٢٥١، ٢٩٢

فإن من تداوي من الدنيا كلما أصابت جراحة من ناحية أخرى، فكيف يطمئن إليها؟!..

أعوذ بالله أن أمركم بما أنهى عنه نفسي فتخسر صفقتي، وتظهر عيلتي، وتبدو مسكنتي، في يوم لا ينفع فيه إلا الحق والصدق[1]

- ٢١ -

ومن خطبه:

وددت أن أعنياء الناس اجتمعوا فردوا على فقرائهم، حتى نستوي نحن بهم، وأكون أنا أولهم: مالي وللدنيا أم مالها ومالي؟![2]

- ٢٢ -

ومن خطبه:

أيها الناس: إنه لا كتاب بعد القرآن، ولا نبي بعد محمد ﷺ، ألا وإني لست بقاض، ولكني منفذ، ألا وإني لست بمبتدع، ولكني متبع

إن الرجل الهارب من الإمام الظالم ليس بعاص، ولكن

---

(١) المصدر السابق، ج ٤ ص ٩٢

(٢) المصدر السابق، ج ٤ ص ٩٣

الإمام الظالم هو العاصي. ألا لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق[1].

- ٢٣ -

ومن خطبه:

أيها الناس، إنكم لم تخلقوا عبثاً، ولن تتركوا سدى، وإن لكم معاداً يحكم الله بينكم فيه، فخاب وخسر من خرج من رحمة الله التي وسعت كل شيء، وحرم جنة عرضها السموات والأرض.

ألا واعلموا أن الأمان غداً لمن يخاف اليوم، وباع قليلاً بكثير، وفانياً بباق، وخوفاً بأمان.

ألا ترون أنكم في أسلاب الهالكين، وسيخلفها من بعدكم الباقون، حتى تردوا إلى خير الوارثين، ثم إنكم في كل يوم تشيعون غادياً ورائحاً إلى الله، قد قضى نحبه، وبلغ أجله، ثم تغيبونه في صدع من الأرض، ثم تدعونه غير موسد ولا ممهد، قد خلع الأسباب، وفارق الأحباب، فسكن التراب، وواجه الحساب، فهو مرتهن بعمله، غني عما ترك، فقير إلى ما قدم. فاتقوا الله قبل نزول الموت وانقضاء مواقعه.

وايم الله، إني لأقول هذه المقالة، وما أعلم عند أحد منكم

---

(١) «مروج الذهب» ج ٢ ص ١٤٥

من الذنوب أكثر مما عندي، فاستغفر الله لي ولكم، وأتوب إليه.

وما تبلغنا حاجة يتسع لها ما عندنا إلا سددناها، ولا أحد منكم إلا وددت أن يده مع يدي ولحمتي الذين يلونني، حتى يستوي عيشنا وعيشكم.

وأيم الله إني لو أردت غير هذا من عيش أو عصارة لكان اللسان به ناطقاً ذلولاً، عالماً بأسبابه، ولكنه مضى من الله كتاب ناطق وسنة عادلة، دل فيهما على طاعته، ونهى عن معصيته.

أيها الناس: من وصل إلينا منكم بحاجته لم نأله خيراً، ومن عجز، فوالله لوددت أنه وآل عمر في العجز سواء[1].

- ٢٤ -

ومن خطبه:

أيها الناس: لا تستصغروا الذنوب، والتمسوا بمحيص ما سلف منها بالتوبة منها: «إن الحسنات يذهبن السيئات، ذلك ذكرى للذاكرين»[2] وقال عز وجل: «والذين إذا فعلوا فاحشة

---

(١) «العقد الفريد» ج ٤ ص ٩٥ و«تاريخ الطبري» ج ٦ ص ٥٧٠، ٥٧١ و«الأغاني» ج ٩ ص ٣٣٨٦

(٢) هود ١١٤.

أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون»[1][2]

- ٢٥ -

ومن خطبه:

أيها الناس: إنما نحن من أصول قد مضت فروعها، فما بقاء فرع بعد أصله؟ وإنما الناس في هذه الدنيا أغراض تنتضل فيهم المنايا، وهم فيها نصب المصائب مع كل جرعة شرق، وفي كل أكلة غصص، لا ينالون نعمة إلا بفراق أخرى، ولا يعمر معمر منكم يوماً من عمره إلا بهدم آخر من أجله![3]

- ٢٦ -

ومن خطبه:

أيها الناس: الحقوا ببلادكم، فإني أذكركم ببلادكم، وأنساكم عندي، ألا وإني قد استعملت عليكم رجالاً لا أقول هم خياركم، ولكنهم خير ممن هو شر منهم! فمن ظلمه عامله بمظلمة فلا إذن له علي

---

(١) آل عمران: ١٣٥

(٢) «العقد الفريد» ج ٤ ص ٤٣٧

(٣) «مروج الذهب» ج ٢ ص ١٤٤.

والله لئن منعت هذا المال نفسي وأهلي ثم بخلت به عليكم إني إذا لضنين.

والله لولا أن أعيش سنة وأسير بحق ما أحببت أن أعيش فواقاً[1].

- ٢٧ -

ومن خطبه.

أيها الناس اتقوا الله فإن في تقوى الله خلفاً من كل شيء دونه، وليس لتقوى الله خلف.

أيها الناس اتقوا الله وأطيعوا من أطاع الله، ولا تطيعوا من عصى الله[2].

- ٢٨ -

ومن خطبه:

أيها الناس من وصل أخاه بنصيحة له في دينه، ونظر له في صلاح دنياه، فقد أحسن صلته، وأدى واجب حقه. فاتقوا الله، فإنها نصيحة لكم في دينكم، فاقبلوها، وموعظة منجية في العواقب فالزموها.

---

(١) «طبقات ابن سعد» ج ٥ ص ٢٥٣ «والفواق: الرجيع الشهقة الغالبة».

(٢) المصدر السابق، ج ٥ ص ٢٧٤

الرزق مقسوم، فلن يعذر المؤمن ما قسم له، فاجملوا في الطلب، فإن في القنوع سعة وبلغة وكفافاً

إن أجل آبائنا في أعناقكم، وجهنم أمامكم، وما يزول ذاهب، وما مضى فكأن لم يكن، وكل أموات عن قريب، وقد رأيتم حالات الميت وهو يسوق، وبعد فراغه وقد ذاق الموت، والقوم حوله يقولون: قد فرغ، رحمه الله! وعاينتم تعجيل إخراجه، وقسمة تراثه، ووجهه مفقود، وذكره منسي، وبابه مهجور، وكأن لم يخالط الحوال الحفاظ ولم يعمر الديار

فاتقوا هول يوم لا تخفر فيه مثقال ذرة في الموازين[1]

- ٢٩ -

وقد أمر عمر بن عبد العزيز بوضع قانون يحدد سنة الإسلام في مصارف الأموال، فنفذ ابن شهاب صياغته

«هذه منازل الصدقات ومواضعها إن شاء الله، وهي ثمانية أسهم:

فسهم للفقراء، وسهم للمساكين، وسهم للعاملين عليها، وسهم للمؤلفة قلوبهم، وسهم في الرقاب، وسهم للغارمين، وسهم في سبيل الله، وسهم لابن السبيل

فسهم الفقراء: بصفة من غزا منهم في سبيل الله، أول

---

(١) «تاريخ الطبري» ج ٦ ص ٥٧١، ٥٧٢

عروة، حين يعرض هم من لامدد، وأول عطاء يأخذونه، ثم تقطع عنهم بعد ذلك بصدقه، ويكون سهمهم في عظم نفيء والنصف الباقي للفقراء ممن لا يعرون، من الرمن[1] ومكث الذين يأخذون عطاء إن شاء الله

وسهم لمسكين نصفه لكل مسكين به عاهة لا يستطيع حيلة ولا تقلباً في لأرض، ونصف الباقي للمساكين الذين يسألون ويستطعمون، ومن في سجون من أهل لاسلام، ممن ليس له أحد، إن شاء الله.

وسهم العاملين عليها بقدر، فمن سعى على الصدقات بأمانة وعفاف، أعطي على قدر ما وفي وجمع من الصدقة، وأعطي عماله الذين سعوا معه على قدر ولايتهم وجمعهم، ولعل ذلك أن يبلغ قريباً من ربع هذا السهم، ويبقى هذا لسهم بعد الذي يعطي عماله ثلاثة أرباع، فرد ما بقي على من يعرو من الأمددة[2] واشترضه، إن شاء الله

وسهم المؤلفة قلوبهم لمن يفرض له من امدد الناس أو عطاء يعطونه ومن يعرو مشترطاً لاعطاء له، وهم فقراء، ومن يحضر لمساجد من المساكين الذين لا عطاء لهم، ولا سهم، ولا يسألون الناس، إن شاء الله.

---

(١) ذوي العاهات بزمنه التي قعدتهم عن السعي

(٢) أي مدد الجيش المحارب

وسهم الرقاب: نصفان، نصف لكل مكاتب[1] يدعي الإسلام، وهم على أصناف شتى، فلفقهائهم في الإسلام فضيلة، ولمن سواهم منهم منزلة أخرى، على قدر ما أدى كل رجل منهم، وما بقي عليه، إن شاء الله. والنصف الباقي تشترى به رقاب ممن قد صلى وصام وقدم في الإسلام، من ذكر وأنثى، فيعتقون، إن شاء الله.

وسهم الغارمين: على ثلاثة أصناف: منهم صنف لمن يصاب في سبيل الله في ماله وظهره[2] ورقيقه، وعليه دين لا يجد ما يقتضي ولا ما يستنفق[3] إلا بدين. ومنه صنف لمن يمكث ولا يغزو، وهو غارم، وقد أصابه فقر، وعليه دين لم يكن شيء منه في معصية الله، ولا يتهم في دينه، إن شاء الله.

وسهم في سبيل الله: فمنه لمن فرض له ربه هذا السهم، ومنه للمشترط الفقير ربعه، ومنه لمن تصيبه الحاجة في ثغره، وهو غار في سبيل الله، إن شاء الله.

وسهم ابن السبيل: يقسم ذلك بكل طريق على قدر من

---

(١) المكاتب: الرقيق يتعاقد مع سيده على أن يعتقه مقابل مال يدفعه له بقاء تحريره.

(٢) الظهر: دابة الحمل والركوب ووسيلة الانتقال.

(٣) أي ينفق.

يسلكها ويمر بها من الناس، فكل رجل من ابن السبيل ليس له مأوى، ولا أهل يأوي إليهم، فيطعم حتى يجد منزلا أو يقضي حاجته، وتجعل في منازل معلومة على أيدي أمناء لا يمر بهم ابن سبيل له حاجة إلا أووه وأطعموه وعلفوا دابته، حتى يبلغ ما يأملهم، إن شاء الله الخ الخ الخ[1]

- ٣٠ -

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى أهل الأمصار في السبد

أما بعد، فإن الناس كان منهم في هذا الشراب المحرم أمر ساءت فيه رعية كثير منهم حتى سفه أحلامهم، وأذهب عقولهم، فاستحل به الدم الحرام، والفرج الحرام، وإن رجالاً منهم ممن يصيب ذلك الشراب يقولون، شربنا حلالاً، فلا بأس علينا في شربه.

ولعمري، إن فيما قرب مما حرم الله بأساً، وإن في الأشربة التي أحل الله من العسل، والسويق، والسبد من الزبيب والتمر مندوحة عن الأشربة المحرمة، غير أن كل ما كان من سبد العسل والتمر والزبيب فلا يسبد إلا في أسقية الأدم[2] التي لا رقى فيها، ولا يشرب منه ما يسكر، فإنه بلغنا أن رسول

---

(١) «الأموال» لابن سلام ص ٧٦٤، ٧٦٥ وهذا هو القدر الذي ذكره ابن سلام من تشريع عمر بن عبد العزيز وقد أضاف أنه اشتمل على ما هو أكثر.

(٢) الجلد المدبوغ

الله ﷺ، نهى عن شرب ما جعل في الجرار، والدباء[1]، والظروف المزفتة. وقال: «كل مسكر حرام»[2].

فاستغنوا بما أحل الله لكم عما حرم عليكم. وقد أردت بالذي نهيت عنه منه - شرب الخمر وما صارع الخمر من الطلاء، وما جعل في الدباء والجرار والظروف المزفتة، وكل مسكر. اتخاذ الحجة عليكم. فمن نطع منكم فهو خير له، ومن يخالف إلى ما نهى عنه يعاقبه على العلانية، ويكفينا الله ما أسر، فإنه على كل شيء رقيب. ومن استخفى بذلك عنا فإن الله أشد بأساً وأشد تنكيلاً[3].

- ٣١ -

ولقد قام حوار بين عمر بن عبد العزيز وبين عامله على العراق عبد الحميد بن عبد الرحمن، بواسطة المراسلات، بدأه عمر بن عبد العزيز:

- أخرج للناس أعطياتهم.

- إني قد أخرجت للناس أعطياتهم، وقد بقي في بيت المال مال؟..

---

(١) مفردها: دباءة، وهو نبات القرع.

(٢) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه والدارمي ومالك وابن حنبل.

(٣) العقد الفريد ج ٦ ص ٣٥٩، ٣٦٠.

- أنظر كل من أدان - بتشديد الدال المفتوحة[1] في غير سفه ولا سرف، فاقض عنه.

- إني قد قضيت عنهم، وبقي في بيت مال المسلمين مال؟

- أنظر كل بكر ليس له مال فشاء أن يزوجه فزوجه، وأصدق عنه[2].

- إني قد زوجت كل من وجدت، وقد بقي في بيت مال المسلمين مال؟..

- أنظر من كان عليه جزية، فضعف عن أرضه، فأسلفه ما يقوى به على عمل أرضه، فإنا لا نريدهم لعام ولا لعامين[3].

- ٣٢ -

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى ولاته بأحقية الأرض من يزيل عنها الماء، أي يجففها ويستصلحها للزراع، فقال: «من غلب الماء على شيء فهو له»[4].

- ٣٣ -

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عامله على مدينة «عمان» حول تشريع ضريبة صيد الأسماك:

---

(١) أي استدان دينا

(٢) أي ادفع صداق زواجه - «مهره» - نيابة عنه

(٣) «الأموال» لابن سلام، ص ٣٥٧، ٣٥٨

(٤) المصدر السابق، ص ٤٠١، ٤٠٢.

«ألا تأخذ من سمك شيئاً حتى يبلغ مائتي درهم فإذا بلغ مائتي درهم فخذ منه الزكاة»[1]..

- ٣٤ -

وكتب إلى عامله على ميسرة «واسط» حول توقيت حلية زكاة التجارة، فقال:

«ألا تأخذوا من أرباح البحر شيئاً حتى يحول عليها الحول»[2]..

- ٣٥ -

وجرى حوار بين عمر بن عبد العزيز وبين عامله على خراسان الجراح بن عبد الله، بواسطة المراسلات، بدأه عمر

- انظر من صلى قبلتك إلى القبلة، فضع عنه الجزية

- إن الناس قد سارعوا إلى الإسلام، ورأى ذلك نقصاً من الجزية، فامتحنهم بالختان!.

- إن الله بعث محمداً ﷺ، داعياً ولم يبعثه جابياً

- إني قدمت خراسان فوجدت قوماً قد أبطرتهم النعمة فهم يمرون فيها مروحاً، أحب الأمور إليهم أن تعود بمنعهم حق الله

(١) المصدر السابق ص ٤٨٢

(٢) المصدر السابق، ص ٥٦٩.

عليهم، فليس يكفهم إلا السيف والسوط، وكرهت الإقدام على ذلك إلا بإذنك!..

- يا ابن أم الخراج! أنت حرص على الفتنة منهم، لا تضربن مؤمناً ولا معاهداً سوطاً إلا في حق، وأحذر القصاص فإنك صائر إلى من يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وتقرأ كتاباً لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها[1]

- ٣٦ -

وبعد عزل عمر بن عبد العزيز للجراح بن عبد الله عن ولاية خراسان، ولى عليها عبد الرحيم بن معيم، وكتب إليه

أما بعد، فكن عبداً ناصحاً لله في عباده، ولا تأخذك في الله لومة لائم، فإن الله أولى بك من الناس، وحقه عليك أعظم، فلا تولين شيئاً من أمر المسلمين إلا المعروف بالنصيحة لهم والتوقير عليهم، وأداء الأمانة فيما استرعى، وإياك أن يكون منك ميلاً إلى غير الحق، فإن الله لا يخفى عليه خافية، ولا تذهبن على الله مذهباً فإنه لا ملجأ من الله إلا إليه[2]

- ٣٧ -

وكتب عمر بن عبد العزيز، بعد توليه الخلافة، إلى يزيد بن المهلب، عامل العراق:

---

(١) «تاريخ الطبري» ج ٦ ص ٥٥٩، ٥٦٠.

(٢) المصدر السابق. ج ٦ ص ٥٦١، ٥٦٢

أما بعد، فإن سليمان بن عبد الملك كان عبداً من عبيد الله، أنعم الله عليه، ثم قصمه وستخلفني، ويزيد بن عبد الملك من بعدي، إن كان.

وأن الذي ولاني الله من ذلك وقدر لي ليس على سبيل، ولو كانت رغبتي في اتخاذ الرياح واعتقاد[1] الأموال، كان لي في الذي أعطاني من ذلك ما قد بلغ بي أفضل ما بلغ أحد من خلقه، وأنا أخاف فيما أصبت به حساباً شديداً، ومسألة عليظة. ألا من عافى الله ورحم

وقد بايع من قبلي، فبايع من قبلك[2]

- ٣٨ -

وكتب إلى عبد الرحمن بن نعيم:

إن العمل وتعلم قريبان، فكن عالماً بالله عاملاً له، فإن أقواماً علموا ولم يعملوا، فكان علمهم عليهم وبالاً، فاعمل عمل رجل يعلم أن الله لا يصلح عمل المفسدين[3]

- ٣٩ -

وكتب إلى عامله على سمرقند، سليمان بن أبي السري

(١) أي جمعها وحيازتها

(٢) «تاريخ الطبري» ج ٦ ص ٥٦٧

(٣) المصدر السابق ج ٦ ص ٥٦٧ .

أن عمل حسنات في بلادك، فمن مر بك من المسلمين فأقروهم يوماً وليلة، وتعهدوا دوابهم، فمن كان به علة فأقروه يومين وليلتين، فإن كان منقطعاً به فقووه بما يصل به إلى بلده[1].

- ٤٠ -

وكتب إلى عامل خراج بحرستا عقبة بن روعة الطائي إن للسلطان أركاناً لا يثبت إلا بها:

- فالوالي ركن..
- والقاضي ركن..
- وصاحب بيت المال ركن.
- والركن الرابع أنا..

وليس من ثغور المسلمين ثغر أهم إلي، ولا أعظم عندي من ثغر حرستا، فتسوغ الخراج وأجره في غير ظلم، فإن يك كذلك لأعطيتهم فضل ذلك، ولا تكتب إلي حتى أحمل إليك الأموال فتوفر هم أعطياتهم، وأقسم الفضل في أهل الحاجة[2].

(١) المصدر السابق. ج ٦ ص ٥٦٧
(٢) المصدر السابق. ج ٦ ص ٥٦٨

- ٤١ -

وكتب إلى أحد عماله.

وقد كثر شاكوك، وقل شاكروك، فإما عدلت، وإما اعتزلت. والسلام![1].

- ٤٢ -

وكتب إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن

سلام عليك. أما بعد، فإن أهل الكوفة قد أصابهم بلاء شديد، وجور في أحكام الله، وسنة خبيثة سبب عليهم عمال السوء.

وإن قوام الدين العدل والإحسان، فلا تكونن شيء أهم إليك من نفسك، فإنه لا قليل من الإثم. وانظر الأرض، ولا تحمل خراباً على عامر، ولا عامراً على خراب، وانظر الخراب، فإن أطاق شيئاً فخذ منه ما أطاق، وأصلحه حتى يعمر، ولا تأخذ من عامر لا يعتمل شيئاً، وما أخذت من العامر من الخراج فخذه في رفق وتسكين لأهل الأرض.

وأمرت ألا تأخذ في الخراج إلا وزن سبعة ليس فيها تبر، ولا أجور الصرابين، ولا إدانة القصة، ولا هدية النيروز،

---

(١) «مروج الذهب» ج ٢ ص ١٤٥

والمهرجان، ولا ثمن الصحف، ولا أجور الفيوج[1]، ولا أجور البيوت، ولا دراهم النكاح.

ولا خراج على من أسلم من أهل الأرض فاتبع في ذلك أمري، فإني قد وليتك من ذلك ما ولاني الله

ولا تعجل دوني بقطع ولا صلب حتى تراجعني فيه

وانظر من أراد من الذرية أن يحج، فعجل له مائة يحج بها والسلام[2].

- ٤٣ -

وكتب إليه أيضاً:

كتبت إلي تسألني عن أناس من أهل الحيرة يسلمون، من اليهود والنصارى والمجوس، وعليهم جزية عظيمة، وتستأذنني في أخذ الجزية منهم.

وإن الله، جل ثناؤه، بعث محمداً ﷺ، داعياً إلى الإسلام، ولم يبعثه جابياً، فمن أسلم من أهل تلك الملل فعليه في ماله الصدقة، ولا جزية عليه وميراثه لذوي رحمه إذا كان منهم، يتوارثون كما يتوارث أهل الإسلام، وإن لم يكن له وارث

(١) رسل السلطان وحملة كتبه

(٢) «الخراج» لأبي يوسف ص ٨٦ «وتاريخ الطبري» ج ٦ ص ٥٦٩

فميراثه في بيت مال المسلمين الذي يقسم بين المسلمين، وما أحدث من حدث ففي مال الله الذي يقسم بين المسلمين يعقل عنه منه. والسلام[1].

- ٤٤ -

وكتب إلى عدي بن أرطاة

بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر، أمير المؤمنين، إلى عدي بن أرطأة، ومن قبله من المسلمين والمؤمنين

سلام عليكم، فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو

أما بعد فانظر أهل الذمة فارفق بهم، وإذا كبر الرجل منهم وليس له مال فأنفق عليه، فإن كان له حميم فمر حميمه ينفق عليه، وقاصه من خراجه كما لو كان لك عبد فكتبت سنة لم يكن لك بد من أن تنفق عليه حتى يموت أو يعتق

وبلغني أنك تأخذ من الخمر العشور، فتبقيه في بيت مال الله، فإياك أن تدخل بين مال الله إلا طيباً والسلام عليكم[2]

- ٤٥ -

وكتب إليه أيضاً:

---

(١) «الخراج» لأبي يوسف: ص ١٣١، ١٣٢

(٢) «طبقات ابن سعد» ج ٥ ص ٢٨٠.

بلغني أن عمالك بفارس يخرصون[1] الثمار على أهلها، ثم يقومونها بسعر دون سعر الناس الذي يبتاعون به، فيأخذونه ورقاً على قيمتهم التي قوموها.

وإن طوائف من الأكراد يأخذون العشر من الطريق، ولو علمت أنك أمرت بشيء من ذلك أو رضيته، بعد علمك به، ما ناظرتك إن شاء الله بما تكره.

وقد بعثت بشر بن صفوان، وعبد الله بن عجلان، وخالد بن سالم ينظرون في ذلك، فإن وجدوه حقاً ردوا إلى الناس الثمر الذي أخذ منهم، وأخذوا بسعر ما باع أهل الأرض عليهم، ولا يدعون شيئاً مما بلغني إلا نظروا فيه، فلا تعرض لهم[2].

- ٤٦ -

وكتب إليه أيضاً:

أما بعد، فإن أمكنتك القدرة على المخلوق فتذكر قدرة الخالق عليك، وأعلم أن ما لك عند الله مثل ما للرعية عندك[3].

---

(١) يقدرون، حدساً وتخميناً.

(٢) «طبقات ابن سعد» ج ٥ ص ٢٨٩، ٢٩٠.

(٣) «العقد الفريد» ج ١ ص ٤٠.

- ٤٧ -

وكتب عدي بن أرطاة إلى عمر بن عبد العزيز

إني بأرض كثرت فيها النعم، وقد خفت على من قبلي من المسلمين قلة الشكر، والضعف عنه!

فأجابه عمر:

إن الله تعالى لم ينعم على قوم نعمة، فحمدوه عليها، إلا كان ما أعطوه أكثر مما أخذوا، واعتبر ذلك لقول الله تعالى «ولقد آتينا داود وسليمان علماً وقالا الحمد لله الذي فضلنا»[1] فأي نعمة أفضل مما أوتي داود وسليمان[2]؟

- ٤٨ -

وكتب إلى عبد الرحمن بن نعيم:

ولا تجروا شاة إلى مذبحها، ولا تجدوا الشفرة على رأس الذبيحة[3]؟!

- ٤٩ -

وكتب إلى حميد بن سلمة:

---

(١) النمل: ١٥

(٢) «العقد الفريد» ج ١ ص ٢٧٨

(٣) «تاريخ الطبري» ج ٦ ص ٥٧٢

أما بعد، فاصلح الذي بينك وبين الله، واعلم أني قد أشركتك في أمانة عظيمة، فإن ضيعت حقاً من حقوق الله كنت أهون خلقه عليه، ثم لا يغني عنك عمر من الله شيئاً[1]

- ٥٠ -

وكتب إلى أبي بكر محمد بن عمر بن حزم

وإياك والجلوس في بيتك، أخرج للناس فأس بينهم في المجلس والمنظر، ولا يكن أحد من الناس أثر عندك من أحد، ولا تقولن: هؤلاء من أهل بيت أمير المؤمنين، فإن أهل بيت أمير المؤمنين وغيرهم عندي سواء، بل أنا أحرى أن أظن بأهل بيت أمير المؤمنين أنهم يقهرون من نازعهم[2]

وإذا أشكل عليك شيء فاكتب إلى فيه[2]

- ٥١ -

وكتب إلى عماله.

أحيوا السنة، وأميتوا البدع، وإنه ينبغي لكم أن يكون ظنكم بي أن لا حاجة لي في أموالكم، لا ما في يدي ولا ما في

---

(١) وطبقات ابن سعد، ج ٥ ص ٢٩٠

(٢) المصدر السابق، ج ٥ ص ٢٥٢، ٢٥٣.

أيديكم، انه حري على من انتهك معاصي الله في عقوبته [1].

- ٥٢ -

وكتب إلى عماله في النياحة واللهو:

بلغني أن نساء من أهل بيته خرجن عند موت ميت منهن ناشرات شعورهن، يبحن كفعل أهل الجاهلية وقد رخص لنساء في وضع خمرهن عند أمرٍ أن يصبرن بخمرهن على حيوهن فتقدموا في هذه النياحة تقدماً شديداً.

وقد كانت هذه الأعاجم تنهى بأشياء زينها الشيطان لهم، فزجر من قبلك من المسلمين عن ذلك، فلعمري لقد كان لهم أن يتركوا ذلك، مع ما يقرؤون من كتاب الله، فزجر عن ذلك الباطل وانههم من النساء وما أشبه، فإن لم ينتهوا فنكل من أتى ذلك منهم، غير متعد في نكال[2].

- ٥٣ -

وكتب إلى سليمان بن أبي كرعة

ن أحق بعبد بإجلال الله والخشية منه من ابتلاه مثل ما

(١) المصدر السابق، ج ٥ ص ٢٧٧، ٢٧٨.
(٢) المصدر السابق، ج ٥ ص ٢٩٠

ابتلاني به، ولا أحد أشد حساباً ولا أهون على الله، إن عصاه، مني، فقد ضاق بما أنا فيه ذرعي، وخفت أن تكون منزلتي التي أنا بها هلاكاً لي، إلا أن يتداركني الله منه برحمته.

وقد بلغني أنك تريد الخروج في سبيل الله، فأحب يا أخي، إذا أخذت موقفك أن تدعو الله أن يرزقني الشهادة، فإن حالي شديدة، وخطري عظيم، فأسأل الله الذي ابتلاني بما ابتلاني به أن يرحمني ويعفو عني[1].

- ٥٤ -

وكتب قرب وفاته إلى يزيد بن عبد الملك:

سلام عليك، أما بعد، فإني لا أرى إلا لما بي، ولا أرى الأمر إلا سيفضي إليك، والله الله في أمة محمد النبي ﷺ، فدع الدنيا لمن لا يحمدك، وتفضي إلى من لا يعذرك، فإياك أن تدركك الصرعة عند العثرة، فلا تقال العثرة، ولا تمكن من الرجعة، ولا يحمدك من خلفت، ولا يعذرك من تقدم عليه والسلام[2].

- ٥٥ -

وكتب إلى الجراح، يوصيه في الحرب.

---

(١) المصدر السابق، ج ٥ ص ٢٩١، ٢٩٢

(٢) المصدر السابق، ج ٥ ص ٣٠٠

انه بلغني أن رسول الله ﷺ كان إذا بعث جيشاً أو سريه قال: اغزو باسم الله، وفي سبيل الله، تقاتلون من كفر بالله، لا تغلوا[1]، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا امرأة ولا وليداً

فإذا بعثت جيشاً أو سريه فمرهم بذلك[2]

- ٥٦ -

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى أسارى المسلمين في سجون الروم بالقسطنطينية:

أما بعد، فإنكم تعدون أنفسكم أسارى، وإنكم أسرى معاذ الله، أنتم الحصناء في سبيل الله، واعلموا أني لست أقسم شيئاً بين رعيتي إلا خصصت أهلكم بأوفر ذلك وأصبه، وقد بعثت إليكم خمسة دنانير، خمسة دنانير، ولولا أني خشيت أن ترددكم أن تحسبه عنكم طاغية الروم لزدتكم

وقد بعثت إليكم فلان بن فلان ليقدي صغيركم وكبيركم، ذكركم وأنثاكم، حركم ومملوككم بما يسأل فأكثروا ثم أكثروا[3].

---

(١) أي لا تخونوا

(٢) «العقد الفريد» ج ١ ص ١٢٨

(٣) «الأغاني» ج ٩ ص ٣٣٨٥، ٣٣٨٦

- ٥٧ -

وكتب إليه عامله على حمص:

إن مدينة حمص قد تهدم حصنها، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي في إصلاحه؟..

فأجابه عمر بن عبد العزيز:

أما بعد فحصنها بالعدل، ونق طرقها من الظلم والسلام[1].

- ٥٨ -

وكتب إلى واليه على أرض الفرات:

إن دع لأهل الخراج من أهل الفرات ما يتحملون به الذهب، ويلبسون الطيالسة، ويركبون البراذين، وخذ الفضل[2].

- ٥٩ -

وكتب إلى عدي بن أرطأة:

عزني منك محاسنك القراء، وعمامتك السوداء، فلما تلونت

---

(١) ابن قتيبة «عيون الأخبار» ج ١ ص ١٣ طبعة دار الكتب المصرية و«العقد الفريد» ج ١ ص ٣١

(٢) المصدر السابق، ج ٢ ص ٥٣.

وحدثك على خلاف ما أملناك. قاتلكم الله! أما تمشون بين المقابر[1]؟!

- ٦٠ -

وكتب إلى بعض عماله:

أما بعد، فإذا دعتك قدرتك على الناس إلى ظلمهم، فاذكر قدرة الله عليك، وفناء ما تؤتي إليهم، وبقاء ما يؤتون إليك والسلام[2].

- ٦١ -

وكتب إلى رجاء بن حيوة:

أما بعد، فإنه من أكثر من ذكر الموت أكتفى باليسير، ومن علم أن الكلام عمل قل كلامه إلا فيما ينفعه.

- ٦٢ -

وكتب إلى من عزاه في ابنه:

بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد، فإن هذا الأمر أمر قد كنا وطنا أنفسنا عليه، فلما نزل لم ننكره. والسلام[3].

(١) المصدر السابق، ج ١ ص ٥٧
(٢) المصدر السابق، ج ١ ص ٧٩
(٣) «تاريخ الطبري» ج ٦ ص ٥٧١

- ٦٣ -

وأوصى قائد جيشه، عمرو بن قيس:

يا عمرو، لا تكن أول الناس فتقتل فيهزم أصحابك، ولا تكن آخرهم فتثبطهم وتجبنهم، ولكن كن وسطهم حيث يرون مكانك، ويسمعون كلامك

وقاد من قدرت عليه من المسلمين وأرقائهم وأهل ذمتهم[1]

وكتب مجيباً من كتب إليه معزياً:

حسبي حياة الله من كل ميت
وحسبي بقاء الله من كل هالك
إذا ما لقيت الله عني راضياً
فإن شفاء النفس فيما هنالك[2]

- ٦٥ -

وكتب إلى رجل له عليه دين

قد آن للحق الذي عندك أن يرجع إلى أهله، ويستغفر الله تعالى من حسبه[3] ! ..

---

(١) «طبقات ابن سعد» ج ٥ ص ٢٧٢
(٢) «عيون الاخبار» ج ٣ ص ٥٤
(٣) «عيون الاخبار» ج ١ ص ٢٥٨.

- ٦٦ -

وقال لغلامه مزاحم:

ان الولاة جعلوا العيون على العوام، وأنا أجعلك عيني على نفسي، فإن سمعت مني كلمة تربأ بي عنها أو فعلاً تحبه فعظني عنده وانهني عنه[1].

- ٦٧ -

وكان معتاداً على أن يردد:

تسر بما يبلى وتفرح بالمنى
كما اغتر باللذات في النوم حالم
نهارك يا مغرور سهو وغفلة
وليلك نوم والردى لك لازم
وسعيك فيما سوف تكره غبية
كذلك في الدنيا تعش البهائم

كم من مستقبل يوماً ليس بمستكمله، ومنتظر غداً ليس من أجله، لو رأيتم الأجل ومسيره، لأبغضتم الأمل وغروره

لا يلبث القرناء أن يتفرقوا
ليل يكر عليهم ونهار

- ٦٨ -

وكان لعمر بن عبد العزيز ولد صالح يدعى عبد الملك،

---

(١) المصدر السابق، ج ٢ ص ١٨

مات في حياته، فما حضرته الوفاة حاوره عمر حواراً بدأه بقوله:

- كيف تجدك؟..

- في الموت!..

لأن تكون في مراي أحب إلي من أن أكون في ميزانك!..

- وأبيك والله لأن تكون ما تحب أحب إلي من أن يكون ما أحب؟!(1)

- ٦٩ -

وفاة عمر بن عبد العزيز محمد بن كعب القرظي

- عظني..

لا أرضى نفسي لك، إني لأصلي بين يدي والفقير، فأميل على الفقير وأوسع للغني(2)

وكان عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب والي عمر بن عبد العزيز على المدينة، وكان يراجع عمر إذا طلب منه رد المظالم لأصحابها، فكتب إليه عمر

---

(1) المصدر السابق. ج ٢ ص ٣١٢

(2) المصدر السابق. ج ٢ ص ٢٧٠

به يحمل إلى أبي لو كتبت إليك أن تعطي رجلاً شاه لكتبت إلي: أصابا أم معزاً؟! ولو كتبت إليك بأحدهما، لكتبت إلي: أذكراً أم أنثى؟! ولو كتبت إليك بأحدهما، لكتبت إلي: أصغيراً أم كبيراً؟!

فإذا كتبت إليك في مظلمة فنفذ أمري، ولا تراجعني فيها[1]

- ٧١ -

وعندما مات ابنه عبد الملك كتب إلى عماله

إن عبد الملك كان عبداً من عبيد الله، أحسن الله إليه وإلي فيه، أعاشه ما شاء وقبضه حين شاء، وكان - ما علمت - من صالحي شباب أهل بيته قراءة للقرآن، وتحرياً للخير، أعوذ بالله أن تكون لي محبة أخالف فيها محبة الله، فإن ذلك لا يحسن في إحسانه إلي، وتتابع نعمه علي، ولأعلمن ما نكب عليه باكيه ولا ناحت عليه نائحة، فقد نهينا أهله الذين هم أحق بالبكاء عليه[2].

- ٧٢ -

ودار بينه، يوماً، وبين ولده عبد الملك حوار بدأه الابن بقوله

---

(١) «العقد الفريد» ج ٣ ص ٩

(٢) المصدر السابق، ج ٣ ص ٣٠٩

يا أبت، مالك لا تقصد في الأمور؟! فوالله لا أبالي في الحق لو غلت بي وبك القدور!.

- لا تعجل يا بني! فإن الله تعالى ذم الخمر في القرآن مرتين وحرمها في الثالثة، وإني أخاف أن أحمل الناس على الحق جملة فيدعوه، وتكون فتنة[1]

- ٧٣ -

ودخل عليه ابنه عبد الملك يوماً، وهو يتهيأ لصلاة الضحى، وحاوره:

- يا أبت، أتدع وأصحاب الخوانيج يكدمون الناس؟!

- يا بني إن نفسي مطيتي، فإن أردت أن أتعبها[2] قطعتها، ومن قطع المطي لم يبلغ الغاية!..

- ٧٤ -

وأجاب عمر بن عبد العزيز محمد بن كعب بن عبد الملك حين خطب إليه أخته ليتزوجها، قائلاً:

الحمد لله ذي العزة والكبرياء، وصلى الله على محمد خاتم الأنبياء.

(١) المصدر السابق ج ٤ ص ٤٠

(٢) أتعبها وأجهدها.

أما بعد، فقد حسن ظن من أودعك حرمته، واختارك ولم يختر عليك، وقد زوجناك على ما في كتاب الله، أمسك بمعروف أو تسريح بإحسان[1].

- ٧٥ -

وأجاب آخر خطب إليه أختاً أخرى:

الحمد لله ذي الكبرياء، وصلى الله على خاتم الأنبياء

أما بعد، فإن الرغبة منك دعت إلينا، والرغبة فيك أجابت منا، وقد زوجناك على ما في كتاب الله، أمسك بمعروف أو تسريح بإحسان[2].

- ٧٦ -

في مرض عمر بن عبد العزيز دخل عليه مسلمة بن عبد الملك، ودار بينهما حوار بدأه مسلمة:

- يا أمير المؤمنين، إنك فطمت أفواه ولدك عن هذا المال، وتركتهم عالة، ولا بد لهم من شيء يصلحهم، فلو أوصيت بهم إلي أو إلى نظرائك من أهل بيتك لكفيتك مؤونتهم إن شاء الله.

- اجلسوني. فأجلسوه، فقال:

---

(١) «عيون الأخبار» ج ٤ ص ٧٣

(٢) المصدر السابق ج ٤ ص ٧٤

الحمد لله، أبالفقر تخوفني يا مسلمة؟! أما ما ذكرت أني قطعت أفواه ولدي عن هذا المال وتركتهم عالة، فإني لم أمنعهم حقاً هو لهم، ولم أعطهم حقاً هو لغيرهم. وأما ما سألت من الوصاة إليك أو إلى نظرائك من أهل بيتي، فإني وصيتي بهم إلى الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين. وإنما بنو عمر أحد رجلين: رجل اتقى الله فجعل الله له من أمره يسراً ورزقه من حيث لا يحتسب، ورجل غبر وفجر، فلا يكون عمر أول من أعانه على ارتكابه.

ادعوا إلى بني... بنفسي فتية تركتهم ولا مال لهم. يا بني، إني قد تركتكم من الله بخير، إنكم لا تمرون على مسلم ولا معاهد إلا ولكم عليه حق واجب إن شاء الله.

يا بني، مثلت رأيي بين أن تفتقروا في الدنيا وبين أن يدخل أبوكم النار، فكان أن تفتقروا إلى آخر الأبد خيراً من دخول أبيكم يوماً واحداً في النار.

يا مسلمة، إني حضرت أباك لما دفن، فحملني عيني عند قبره، فرأيته قد أفضى إلى أمر من أمر الله راعني وهابني، فعاهدت الله ألا أعمل بمثل عمله إن وليت، وقد اجتهدت في ذلك طول حياتي، وأرجو أن أفضي إلى عفو من الله وغفران.

قوموا، يا بني، عصمكم الله ورزقكم[1].

---

(١) «العقد الفريد» ج ٤ ص ٤٤٠ و«الأغاني» ج ٩ ص ٣٣٨٤، ٣٣٨٥

ولعمر بن عبد العزيز كلمات في الحكمة صارت مضرب الأمثال وموضع الاستشهاد:

● ما قرب شيء إلى شيء أحسن من حلم إلى علم، ومن عفو إلى قدرة.

● من جعل دينه غرضاً للخصومات أكثر التنقل

● دعا للمسلمين بمعرفة فقال: اللهم زدني في إحسان محسنهم، وارجع بمسيئهم إلى التوبة، وحط من ورائهم برحمة

● خصلتان لا تعدمانك من الجاهل: كثرة الالتفات، وسرعة الجواب.

● إذا دخل عليك رجل لا ترى لك عليه فضلاً، فلا تأخذ عليه شرف المجلس.

● من أشقى غيظي؟ حين أقدر، فيقال لي: لو عفوت؟! أو حين أعجز، فيقال لي: لو صبرت؟!

● إياكم والمثلة في العقوبة: حز الرأس واللحية

● إني لأجمع أن أخرج للمسلمين أمراً من العدل، فأخاف ألا تحتمله قلوبهم، فأخرج معه طمعاً من طمع الدنيا، فإن نفرت القلوب من هذا سكنت إلى هذا.

● من عمل على غير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح،

ومن لم يعد كلامه من عمله كثرت ذنوبه . والرضا قليل ، ومعول المؤمن الصبر، وما أنعم الله على عبد نعمة ثم نزعها منه فاعتاضه عنها انتزع منه الصبر إلا كان ما أعاضه خيراً مما نزع منه «إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب»[1]

● الأمور ثلاثة أمر ستبين رشده فاتبعه، وأمر استبان ضره فاجتنبه، وأمر أشكل أمره عليك فرده إلى الله

● إذ كان في بقاضي خمس خصال فقد كمل علم بما كان قبله، ونزاهة عن تطمع، وحلم عن الخصم، وفتاء بالأئمة، ومشاورة أهل العلم والرأي

● إذا أتاك الخصم، وقد قضيت عليه، فلا تحكم له حتى يأتي خصمه، فلعله قد قضيت عليه جميعاً

● إن أفضل القصد عند الحدة، وأفضل العفو عند القدرة

● كل واعظ قبلة.

● ما أصبح لي اليوم في الأمور هوى إلا في مواقع قضاء الله فيها.

● خمس إذ أخطأ القاضي منهن خصلة كانت فيه وصمة أن يكون فهيماً، وأن يكون حليماً، وأن يكون عفيفاً، وأن يكون صليباً، وأن يكون عالماً يسأل عما لا يعلم

---

(١) الزمر: ١

● لو كان كل بدعة يميتها الله على يدي، وكل سنة ينعشها الله على يدي بضعة من لحمي، حتى يأتي آخر ذلك على نفسي، كان في الله يسيراً.

● إن الله لا يؤاخذ العامة بعمل الخاصة، فإذا أظهرت المعاصي فلم ينكر استحقوا العقوبة جميعاً.

● التقي ملجم.

● ما قوم أشبه بالسلف من الأعراب، لولا الجفاء فيهم.

● الحسن البصري. سيد التابعين.

● لو جاءت كل أمة بمنافقيها، وجئنا بالحجاج بن يوسف لفضلناهم!..

● لولا ثلاث لم أحفل متى قام عودي[1] لولا أن أنفر في السرية، وأقسم بالسوية، وأعدل في القضية.

● وقال لرجل أغضبه: لا عليك، إنما أردت أن يستفزني الشيطان بعزة السلطان، فأنال منك اليوم ما تناله مني غداً، انصرف إذا شئت!..

● سأله رجل.

متى أتكلم؟

---

(١) الذين يبعثونني عند الوفاة

- إذا اشتهيت أن تصمت!..

- فمتى أصمت؟..

- إذا اشتهيت أن تتكلم!..

● إنما الجرع قبل المصيبة، فإذا وقعت فلا عما أصبت

● ما ولدت أمية مثل خالد بن يزيد، ما استثنى عثمان ولا غيره[1]!..

● الصلاة تبلغك نصف الطريق، والصوم يبلغك باب الملك، والصدقة تدخلك عليه!..

* * *

ذلكم هو عمر بن عبد العزيز...

وهكذا تكلم عمر بن عبد العزيز...

---

(١) «العقد الفريد» ج ٢ ص ٢٣٢

المصادر

- ابن أبي الحديد [شرح نهج البلاغة] تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم طبعة القاهرة سنة ١٩٥٩ م

- ابن الأثير [الكامل في التاريخ] طبعة القاهرة سنة ١٣٠٣ هـ

- ابن خرداذبة [المسالك والممالك] طبعة ليدن سنة ١٨٨٩ م

- ابن خلدون. [المقدمة] طبعة القاهرة سنة ١٣٢٢ هـ؛ [العبر] طبعة القاهرة (بولاق) سنة ١٢٨٤ هـ

- ابن رستة: [الأعلاق النفيسة] طبعة ليدن سنة ١٨٩١ م

- ابن سعد [الطبقات] طبعة دار التحرير القاهرة

- ابن عبد ربه [العقد الفريد] طبعة القاهرة سنة ١٩٢٨ م

- ابن عساكر [التاريخ الكبير] طبعة روضة الشام سنة ١٣٣٢ هـ

- ابن المرتضى [المنية والأمل في شرح كتاب الملل والنحل] مخطوط مصور بدار الكتب المصرية.

- أبو عبيد القاسم بن سلام [الأموال] طبعة القاهرة سنة ١٣٥٣ هـ وسنة ١٩٦٨ م

- أبو يوسف [كتاب الخراج] طبعة القاهرة سنة ١٣٥٢ هـ

- الأصفهاني [الأغاني] طبعة دار الشعب القاهرة

- البغدادي (صفي الدين عبد المؤمن) [مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع] طبعة القاهرة سنة ١٩٥٤ م

- البلاذري [فتوح البلدان] طبعة القاهرة سنة ١٣١٩ هـ

- جمال الدين القاسمي [تاريخ الجهمية والمعتزلة] طبعة القاهرة سنة ١٣٣١ هـ

- الجهشياري [الوزراء والكتاب] طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨ م

- الحصري [التاريخ] طبعة دار المعارف القاهرة

- الحموي (أبو جعفر) [تلخيص الشافي] طبعة النجف ١٣٨٣ - ١٣٨٤ هـ

- عبد الجبار بن أحمد (قاضي القضاة) [المغني في أبواب التوحيد والعدل] طبعة القاهرة؛ [فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة] طبعة تونس سنة ١٩٧٢ م؛ [تثبيت دلائل النبوة] طبعة بيروت سنة ١٩٦٦ م.

- فان فلوتن. [السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٥ م.

- فيشر (يوليوس). [تاريخ الدولة العربية] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨ م

- القرطبي [الجامع لأحكام القرآن] طبعة دار الكتب المصرية

- الماوردي [الأحكام السلطانية] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٣ م

- محمد عمارة (دكتور) [المعتزلة والثورة] طبعة بيروت سنة ١٩٧٧؛ [الاسلام والثورة] (تحت التطبع)؛ [المفكر الاجتماعي لعلي بن أبي طالب] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٧ م

- محمد فؤاد عبد الباقي [المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم] طبعة دار الشعب القاهرة

- المسعودي [مروج الذهب] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦ م

- المقدسي. [أحسن التقاسيم] طبعة ليدن سنة ١٨٧٧ م

- المقريزي. [الخطط] طبعة دار التحرير القاهرة

- نجيب العقيقي [المستشرقون] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٤ م

- يحيى بن آدم: [الخراج] طبعة القاهرة سنة ١٣٤٧ هـ.
- [المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي] وضع الاتحاد الأمي لجمعيات الاستشراق. طبعة ليدن ١٩٣٦ - ١٩٦٩ م.

فهـرس

مقدمة الطبعة الجديدة ٥
مقدمة الطبعة الثانية ٩
بطاقة حياة ١٣
لغة جديدة ٢٧
السلام العام ٣٥
مع المعتزلة
ومع الخوارج
ومع الهاشميين
ثورة في جهاز الدولة ٥٩
رد المظالم . . . أو: الثورة الاجتماعية ٦٩
ولقد بدأ بنفسه

وبزوجه وأولاده
وبالأمراء والأميرات من بني أمية
ثم انتشرت الثورة إلى الأقاليم والأمصار
ورجل الدولة ١٢١
وبدأت الدولة تعطي ١٣٧
الحقيقة.. الأسطورة ١٤٧
وأخيراً... هكذا تكلم عمر بن عبد العزيز ١٦١
المصادر ٢٢٩

عمر بن عبد العزيز

دار الوحدة